النهضة

بين الحداثة و التحديث

قراءة في تاريخ اليابان ومصر الحديث

أ. د. محمد أمحزون

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مكناس - المغرب

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

النهضة

بين الحداثة والتحديث

قراءة في تاريخ اليابان ومصر الحديث

تأليف

أ. د. محمد أمحزون

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مكناس - المغرب

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

أمحزون ، أ . د . محمد .
النهضة بين الحداثة والتحديث : قراءة في تاريخ اليابان ومصر الحديث / تأليف : محمد أمحزون . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٨م .
١٠٤ ص ؛ ٢٠سم .
تدمك ٢ ٦٦٠ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - عصر محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٩) .
٢ - اليابان - تاريخ - العصر الحديث .
أ - العنوان
٩٦٢,٠٣١

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م عن عقد الجائزة تقريبًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

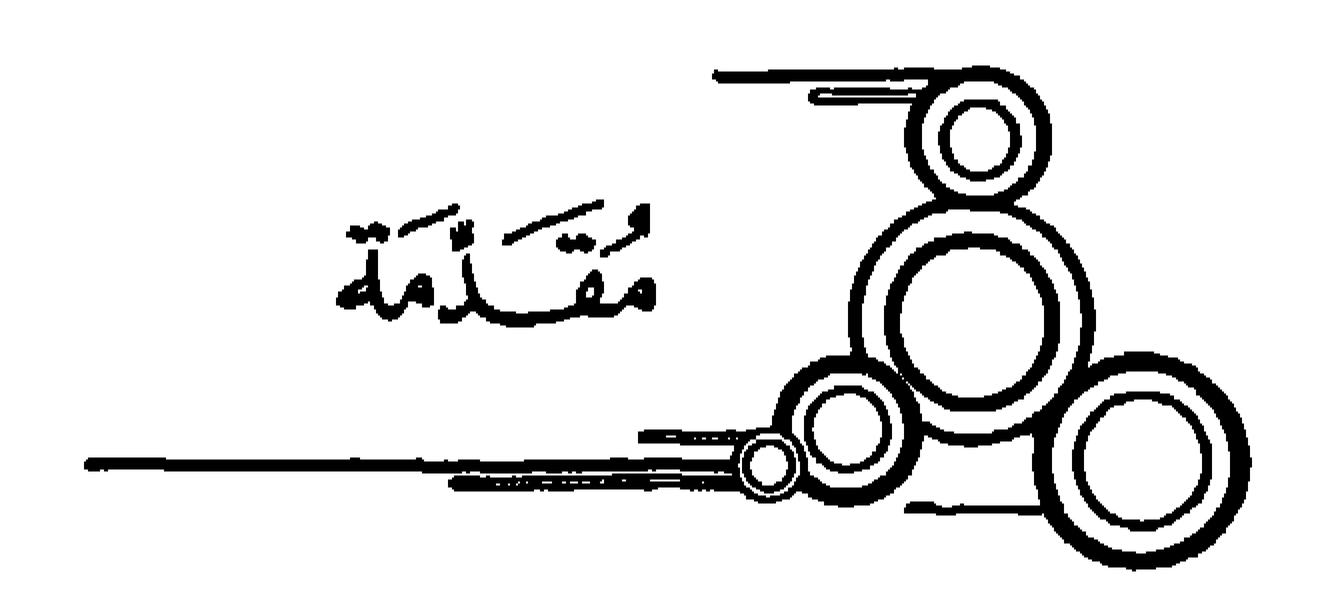
جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم



الموضوع	الصفحة

* * *



منذ القرن التاسع عشر خضع اليابان أمة ودولة للتحديث في جميع المجالات الحيوية ، انطلاقًا من إصلاح الاقتصاد والتعليم وتحديث الجيش ، وبناء علاقات اجتماعية تمتاز بالتكتل والتعاون والانسجام ، كل ذلك في إطار عملية متوازية ومتوازنة توائم بين الأصالة والمعاصرة .

ويتجلى النجاح الأكبر للتجربة اليابانية في النهضة برفض اقتباس الثقافات الغربية التي تقود إلى التغريب في المسكن والمأكل والملبس والتعليم والتخاطب اليومي ، واقتباس تكنولوجيا الغرب فقط ، والعمل على توظيفها واستيعابها وتطويرها دون المساس بأصالة التقاليد اليابانية والعادات والثقافة الإنسانية الاجتماعية التي ميزت اليابانيين عن باقي الشعوب ، بينما باءت محاولات الإصلاح في مصر بالفشل بعد أن تحولت إلى حركة تغريب ، وليس تحديث متأصلة الجذور في الدولة والمجتمع .

لقد كانت أوربا تخطط لفرض الحداثة أو التغريب « Westernisation » على المجتمعات الإسلامية التي كانت

واقعة تحت نفوذ السلطنة العثمانية بهدف تحويلها إلى أطراف تابعة للمركزية الأوربية ، ولما كانت السلطنة العثمانية عقبة كؤود أمام مشروع أوربا التغريبي ، فقد سعت بشتى الوسائل إلى تفكيك أوصالها ، وكان محمد علي باشا - والي مصر - من الأدوات التي استخدمها الغرب لإضعاف الدولة العثمانية وتهديم أركانها ، ثم جاء حلفاؤه وساروا على نهجه ، فعثوا في مصر فسادًا ، وشجعوا حركة التغريب ، وحموا تغلغل الأجانب وسيطرتهم على المرافق الحيوية فيها ، إلى أن انتهت حركة التحديث الشكلية بالاحتلال الإنجليزي لمصر عام (١٨٨٢م) .

* * *

الفصل الأول

السماح لمحمد علي ببناء جيش حديث لإضعاف السلطنة العثمانية

من بين الوسائل التي اتخذتها أوربا لزعزعة الأوضاع في السلطنة العثمانية السماح ببناء وتحديث جيش مصري يمتاز بمهارة قتالية عالية ، ويمتلك مصانع حديثة لتصنيع السلاح والذخيرة ، ووضعه في موقع التعارض مع الجيش العثماني .

وقد وجدت الدول الاستعمارية الأوربية في حملات محمد علي ضد السلطنة تعويضًا عمليًا عن حملاتها المباشرة ، على أن الانتصارات العسكرية لمحمد علي ما كانت لتتم بتلك السرعة لو لم تتوافق مع إستراتيجيات الدول الاستعمارية الكبرى آنذاك ، والرامية إلى تفكيك السلطنة واقتسام ولاياتها [١] .

وفي البداية لم تبد بريطانيا رغبة في مقاومة الغزو المصري

---

(١) مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية : تشابه المقدمات واختلاف النتائج ، (ص ١٢٨ ، ١٢٩) .

السريع لبلاد الشام العثمانية ، بل كانت تزوِّد جيش محمد علي بالذخيرة ، أما فرنسا فكانت مرتاحة إلى احتلاله لبلاد الشام ، وكانت تحضه على إعلان انفصاله رسميًا عن السلطنة ، وتشكيل نظام سياسي وثيق الارتباط بفرنسا (١) .

وعلى الرغم من تصريح محمد علي باشا في ٨ يوليو (١٨٣٣م) بأنه لا يطمع مطلقًا في خلافة المسلمين ، بل يسعى إلى تجنب انهيار السلطنة العثمانية ، فإن الوقائع البارزة للعيان كانت تؤكد غير ذلك تمامًا ، فالفرمانات السلطانية ضده أفقدته تعاطف المسلمين معه ، وبات عرضة لانتقادات شديدة من جانب العلماء ، بسبب إعلانه الحرب على السلطنة العثمانية بالتواطؤ مع قوى أوربية مستعمرة (٢) .

وهكذا ظهر محمد علي بمظهر الساعي إلى ضرب وحدة المسلمين بيد إسلامية مدعومة من الأوربيين ، ولم يكن بمقدور الجماهير الإسلامية أن تقف إلى جانبه ومشاركته في تهديم السلطنة تحت شعار ستار توحيدها بالقوة ومنع سقوطها بيد الأوربيين ، واستطاع العثمانيون أن يصوروا للرأي العام الإسلامي أن حروب محمد علي على السلطنة ليست سوى الوجه الآخر للمشروع الاستعماري الأوربي الرامي إلى تفكيك أوصال السلطنة من الداخل ،

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ١٠٨ ، ١٠٩) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ١١١) .

وأن محمد علي قد سهل إلى حد بعيد تنفيذ هذا المشروع ، فوفر على الأوربيين الكثير من الخسائر في الرجال والعتاد والنفقات المالية (١) .

وليس من شك في أن انتصارات إبراهيم باشا (ابن محمد علي) السريعة على الجيش العثماني دفعت السلطان إلى مزيد من التنازلات للدول الأوربية في محاولة منه لإنقاذ عرشه المنهار (٢) ، فنالت امتيازات الملاحة في نهر الفرات التي أعطيت للإنجليز عام (١٨٣٧م) ، واتفاقية (بالطاليمان) لعام (١٨٣٨م) ، والتقارب الروسي العثماني ، والتقارب النمساوي العثماني (٣) .

وقد تم انتزاع هذه الاتفاقيات والتنازلات من السلطان العثماني لمصلحة المشاريع الاستعمارية الأوربية ، تحت ستار الدفاع عن السلطنة ضد واليها المتمرد ، وفي الخفاء كانت الدول الأوربية تشجع محمد علي على مهاجمة السلطنة .

نتيجة لذلك استفادت جميع الدول الأوربية من الصراع العثماني المصري ، فلم تعد الاتفاقيات التجارية والمالية حكرًا على دولة أوربية واحدة ، بل فتحت الباب واسعًا أمام

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ١١٢) .

(٢) زكريا سليمان بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، (ص ١٩٨) .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، (٢١٨/١) ، (٧٦٩/٢) .

حركة رؤوس الأموال الأوربية على امتداد ولايات السلطنة ، ومنها مصر والمناطق التي سيطر عليها محمد علي في حربه ضد السلطان العثماني [١] ، وخاصة بلاد الشام التي أتاح فيها الفرصة لشركات تجارية أوروبية لتتحكم في الاقتصاد ، ومنح امتيازات واسعة للأوربيين ، وهيأ المناخ اللازم لإقامة المؤسسات المعادية للإسلام وللمسلمين من محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس نجحت في بذر بذور القومية وبث الأفكار المعادية لمصالح المسلمين [٢] .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الهدف من هذه المناورة الأوربية إضعاف الجيشين العثماني والمصري معًا ، فتنهار ركائز المقاومة الداخلية أمام قوى السيطرة الأوربية الساعية إلى فرض الحداثة الغربية على مختلف الولايات الإسلامية بهدف تحويلها إلى أطراف تابعة للمركزية الأوربية .

وعلى الرغم من دخول محمد علي بلاد الشام منتصرًا ، إلا أنه وجد عقبتين كبيرتين أمام استقرار حكمه في هذه البلاد :

١ - استياء الأهالي من تدابير الإدارة المصرية كالتجنيد الإجباري ، والسخرة ، والمصادرة ، وكثرة الضرائب ، والاحتكار ، وهو استياء كان يلقى الدعم المباشر من الباب العالي .

---

(١) انظر مقال المؤلف : انهيار الدولة العثمانية في ضوء السنن الاجتماعية ، مجلة المنار الجديد ، عدد (١٤) ، (ص ٧ ، ٨) .

(٢) زكريا سليمان بيومي : المرجع السابق ، (ص ١٩٩) .

٢ - تدخل القناصل الأجانب في الشؤون المحلية وادعاؤهم حق الحماية لبعض الطوائف والأفراد في بلاد الشام ، ولقد لخص إبراهيم بن محمد علي هذا الوضع بقوله : « أما القناصل الأجانب فهم مصدر عذابي ؛ إذ يعرقلون سير العمل في إدارتي على الدوام ... فلا أستطيع القيام بأي شيء حيالهم ، إنهم كارثة حقيقية تحل بالبلاد »[١] .

وتجدر الإشارة إلى أن الانتصارات التي حقَّقها الجيش المصري في معاركه خارج مصر بقيت بدون نتائج إيجابية على المستوى المحلي ، بل أرهقت القوى المنتجة في مصر ؛ لأن تكاليف الحرب قادت إلى فرض مزيد من الضرائب ، بالإضافة إلى التجنيد الإجباري الذي قلل من عدد القوى العاملة في المدن والأرياف من حرفيين وفلاحين وعمال[٢] . كما أن السخرة (العمل بلا أجر) والمصادرة ، وتشديد قبضة الدولة الاحتكارية أضعف الإنتاج إلى حدٍّ كبير[٣] .

وعلى الصعيد الخارجي فإن التلاقي بين مشروع محمد علي وأهداف الأوربيين يجب أن يقف عند حدٍّ معين ، ولا

---

(١) انظر : جوزيف حجار : أوروبا ومصير الشرق العربي ، (ص ١١٧) .
(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٨٤) .
(٣) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، (٣/٣٧٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٠) .

يسمح الأوربيون لقوة ناشئة قد يستفيد منها المسلمون في المستقبل أن تستمر وتقوى [١] .

وفي الوقت ذاته قادت هزائم السلطنة التي مني بها الجيش العثماني أمام الجيش المصري إلى نتائج مشابهة في إلحاق السلطنة وولاياتها بالمركزية الأوربية .

توجيه محمد علي الجهود لمحاصرة الأزهر معقل الثورة والتغيير في مصر

لقد وجه محمد علي جهوده لتكبيل جامع الأزهر ؛ إذ يعلم علم اليقين مقدرته القيادية في المجتمع ؛ فقد واجه الفرنسيون إبان حملتهم على مصر في عام (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) ثورتين شعبيتين قادهما علماء الأزهر ، كما قادوا ثورة ضد الأمير المملوكي عثمان البرديسي فهرب من القاهرة ، وضد خورشيد باشا وولوا مكانه محمد علي بشروط سميت المشروطية كانت في وقت مبكر بمثابة الدستور ، وذلك في عام (١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م) ، كما قادوا حركة شعبية لتثبيت محمد علي نفسه في الحكم بعد أن قرر الباب العالي عزله [٢] .

ولأجل ذلك خطط محمد علي لمحاصرة موارد الأزهر

---

(١) محمد إبراهيم : عسكرة الدولة : محمد علي باشا نموذجًا ، مجلة السنة ، عدد (٩٥) ، (ص ٩٧) .

(٢) منير شفيق : تجربة محمد علي الكبير ، (ص ٩ ، ١٠) .

الوقفية ، وأعمل الدسائس بين شيوخه ، وجزاهم جزاء سِنِمَّار ، مما أسهم في تحطيم دوره السياسي ، فمنذ عام (١٢٢٤ - ١٢٣٠هـ ، ١٨٠٩ - ١٨١٥م) بدأ بتصفية الأوقاف في مصر ، وألحق جرايات المساجد والعلماء بالدولة . وكان ذلك جزءًا من بدء معركته ضد العلماء ، وهو ما سيترك آثاره السلبية لاحقًا على مجمل مشروعه ، ويكون سببًا رئيسًا من بين أسباب عدم قدرته على مواجهة الدول الكبرى وقد فقد تأييد العلماء [1] .

ومن التنبيه بمكان هاهنا أن محمد علي دفع ثمن هذا الخطأ غاليًا عندما أحاطت به الجيوش الأوربية ، وأنزلت به الضربة القاضية ؛ فالاعتماد على الجيش والدولة بعيدًا عن مشاركة فعلية للشعب وزعاماته وقياداته العلمية لا تنفع عند مواجهة جيوش منظمة متفوقة ، أما عندما يدخل في حساب المقاومة المجتمع والشعب وتكون المعركة دفاعًا عن الدين والكرامة والوطن ، فإن مواجهة مثل تلك الجيوش تصبح ممكنة في حرب استنزافية طويلة المدى قابلة لتحقيق الانتصار ، كما حدث في مثال تجربة محمد علي عام (١٢٢٢هـ - ١٨٠٧م) [2] .

---

(١) المرجع السابق ، (ص ١٥) (بتصرف) .

(٢) المرجع السابق ، (ص ٤٩ ، ٥٠) .

التحديث الشكلي أدى إلى انخراط في علاقة تبعية بالمركزية الأوروبية

لقد استُدْرج محمد علي إلى حرب شرسة ضد السلطنة العثمانية عند أبواب الأستانة وسط عداء شديد من القوى الداخلية المدعومة مباشرة وبقوة من الإنجليز ، فعاد الجيش المصري مهزومًا وتخلى الباشا عن جميع أحلامه التوحيدية والتحديثية ، وأوقف الكثير من المشاريع الإنمائية والتعليمية التي بدأها ، وانتهى به المطاف إلى القبول بالمحاكم الأوروبية المختلطة ذات الصبغة الاستعمارية منذ عام (١٨٤٥م) (١) .

إن تحقيق نهضة فعلية يقتضي تحديث الجيش وتأهيله لحماية الأراضي والأمة والمؤسسات بمبادرة ذاتية ، وليس إملاءً من القوى العظمى وقتئذ ، والتي كان هدفها تحديث الجيش المصري مؤقتًا لشل قدرات السلطنة العثمانية . وعندما تحقق هذا الهدف ، تحالفت الدول الأوروبية في الاتجاه المعاكس تحت ستار الحفاظ على وحدة السلطنة ومنع محمد علي من الحلول مكانها .

ونتج عن هذا هزيمة مشروع محمد علي لتوحيد مصر وبلاد الشام ، وأعيد الباشا إلى داخل مصر مذؤومًا مدحورًا .

كما أن إطلاق نهضته يستدعي إرادة قوية وعزيمة صلبة ،

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٨٥) .

ويحتاج إلى مدارس وطنية ترفد هذه النهضة بالشباب المتعلم تعليمًا عصريًّا مشدودًا إلى قيم البلد وأصالته ، وإلى صناعة قوية تدعمها وإلى موارد اقتصادية كبيرة تجبيها الدولة المركزية بالعدل من القوى المنتجة من مزارعين وحرفيين وتجار ، وإلى بعثات علمية للتخصص العالي والتقني في أوربا ، وإلى رقابة صارمة للدولة المركزية على التجارة المحلية والسلع المعدة للتصدير الخارجي ، وإلى مجالس إدارة تعمل تحت إشراف السلطات المختصة ، وإلى مجالس تمثيلية تضم أعضاء يمثلون مختلف الطوائف والمهن ، وإلى الحد من نفوذ السفراء والقناصل الأجانب الذين يستغلون نظام الامتيازات الأجنبية ليمارسوا ضغوطًا لابتزاز التجارة والصناعة المحلية .

وهذه آليات لم يعمل بها محمد علي ، ذلك أن حركته التحديثية كانت أقرب إلى التغريب أو الاقتباس عن الغرب من جهة ، ومن جهة أخرى فإن محمد علي لم يأخذ بعين الاعتبار قدرة البنى المحلية التقليدية على استيعاب تلك الإصلاحات وتقبلها ؛ إذ كان الأمر يحتاج إلى ترشيد الناس وتوعيتهم ببرامج الإصلاح ، وإقناعهم بأن ثمراته ستعود عليهم بالنفع والخير .

بل على العكس من ذلك ، سرعان ما انفجرت صدامات دموية في بلاد الشام إبان وجود المصريين ، وبشكل أكثر شراسة بعد رحيلهم ، بين القوى التقليدية التي

لم تستوعب بعد مقاصد التغيير والإصلاح ، والقوى الاجتماعية الجديدة الانتهازية التي تسير في ركاب الأوروبيين ، والتي ساندت الإصلاحات بقوة ، ولاقت دعمًا صريحًا من الدول الأوروبية النشطة لمنع عودة العثمانيين إلى حكم هذه المنطقة [١] .

وقد دلت تجربة محمد علي بالملموس على أن استيراد التكنولوجيا الغربية دون استيعاب وتطوير لها ، سيقود لا محالة إلى انخراط الدولة المستوردة للتكنولوجيا في علاقات تبعية مباشرة للدول الغربية التي تتحكم فيها .

وعرفت الدول الأوروبية بدهاء كيف توظف الاقتباس عن الغرب لمزيد من تفكيك الروابط التقليدية للمجتمع المصري ، لذا فحركة التصنيع في مصر أعطت ثمارًا محدودة في تطوير البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لهذا المجتمع ؛ إذ سرعان ما توقف التصنيع الداخلي مع خلفاء محمد علي لصالح استيراد السلع الجاهزة والتكنولوجيا التي استخدمت كسلاح لتدمير نقاط القوى في المجتمع التقليدي المصري ، دون ترسيخ مجتمع عصري حديث قادر على رد التحدي الأوربي .

ولم يكتف الباشا بضرب نقاط القوة في المجتمع التقليدي في مصر وحدها ، بل تعداها لتوجيه ضربات مماثلة للركائز

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٨٦) .

البنيوية في كل من السودان والجزيرة العربية وبلاد الشام ؛ فوجّه ضربة قوية إلى الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، وإلى الحركة المهدية في السودان ، وإلى الحركة السنوسية في ليبيا ، وإلى الزعامات التقليدية في بلاد الشام ، مما سهل إلحاقها التبعي بالمركزية الأوربية بعد ذلك [١] .

* * *

(١) انظر زكرياء سليمان بيومي : المرجع السابق ، (ص ١٧٨ - ١٨٥) .

الفَصْلُ الثَّانِي

تغريب النهضة في مصر مقابل تأصيل النهضة اليابانية

تحديث الجيش

في اليابان انطلق المصلحون من الركائز الإيجابية في التراث الياباني ، والتي أدت دورًا أساسيًا في إنجاح نهضتهم .

ولا تزال اليابان إلى اليوم ترفض مقولات التغريب في جميع المجالات ، كما ترفض التفاعل مع الدول الأجنبية إلا بمقدار ما يحافظ ذلك التفاعل على الشخصية اليابانية التي يعتبرونها فريدة في العالم ، ومستندة إلى وحدة شعب متجانس عرقيًا ولغويًا ودينيًا وثقافيًا واجتماعيًا .

وجدير بالذكر أن النهضة اليابانية قد انطلقت من تحديث الجيش الياباني والقطاعات المرتبطة به لدرء مخاطر الغزو الأجنبي المحتمل ، وسرعان ما بدأ العمل فورًا بتحديث قطاعات الإنتاج بعد أن زال احتمال الخطر ، وتم توظيف

الجيش الياباني ضمن إستراتيجية توسعية للإمبريالية اليابانية [١] .

فانطلاقًا من تزويد الجيش بأحدث التكنولوجيا الغربية المستوردة والمتطورة ، تم تزويد المصانع اليابانية بأحدث التكنولوجيا الغربية لتضخيم الإنتاج المحلي ، والبحث عن أسواق عالمية لبيع فائض الإنتاج ، والسيطرة على بعض مصادر المواد الخام ، وبحثًا عن أسواق جديدة ، فأدى شعار تحديث الجيش دورًا مزدوجًا ، أي تحديث القوى العسكرية من جهة ، وتحديث قاعدة الإنتاج من جهة ثانية [٢] .

وقد صرفت حكومة مايجي على تحديث الجيش الياباني قرابة (٢٠٠) مليون ين (yen) في الفترة ما بين (١٨٧٧م و١٨٩٤م) ، أضيف إليها موازنة بلغت قرابة (١٣٠) مليون ين (yen) لتحديث البحرية اليابانية . وبنيت العديد من الثكنات العسكرية التي تغطي جميع الأراضي اليابانية ، وأنشئ الحرس الإمبراطوري المنظم أفضل تنظيم والمزود بأحدث أنواع التكنولوجيا العسكرية ، وإلى جانبه ست فرق حديثة التسليح ، وفي عام (١٨٨٣م) تأسست مدرسة أركان الجيش الياباني بالاستناد إلى خبرة

---

(١) إسماعيل ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، (ص ١٥٠) وما بعدها .

(٢) انظر : ليهمان : جذور اليابان الحديث .

Lehmann: The Roots of Modern Japan, p. 265-266.

(نقلا عن مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية ، ص٢٩٣) .

فرنسية وألمانية معًا [١] .

ومنذ العام (١٨٨٥م) بات الجيش الياباني يعتمد الخطط القتالية الألمانية بالدرجة الأولى ، وفي سنة (١٨٩٠) أصبح عدد الجيش الياباني الثابت قرابة (٧٣,٠٠٠) جندي ، ويرتفع الرقم عند الاستنفار إلى ٢٧٤,٠٠٠ جندي مزودين بآلة تكنولوجية شديدة الفعالية ، ومنظمة أحدث تنظيم [٢] .

أما في مصر ، فقد باءت محاولات الإصلاح بالفشل بعد أن تحولت إلى حركات تغريب ، وليس حركات تحديث متأصلة الجذور في الدولة والمجتمع .

فعلى الصعيد العسكري ، استقى كل من باشا مصر والسلطان العثماني كل ما يحتاجان إليه من أدوات الصراع المكشوف بينهما من مصادر غربية وأحادية الجانب ، فغرف الأول من النموذج الإنجليزي والثاني من النموذج الفرنسي بالدرجة الأولى ، وتحول صراعهما إلى اختبار لنموذجي التحديث العسكري الفرنسي والبريطاني ، امتدادًا للتنافس

---

(١) انظر : بورتون : قرن التحديث الياباني .

Borton: Japan's Modern Century, p. 179-180.

(نقلا عن مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية ص ٢٩٣ ، ٢٩٤) .

(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٩٤) .

الإستراتيجي الأوربي للسيطرة على هذه المنطقة ، وكانت الغاية لدى الجانبين تبرر الوسيلة ، أي استيراد الأسلحة الحديثة الجاهزة لاستخدامها الفوري في المعارك الدائرة بينهما .

وهكذا وظفت حركة التحديث في مصر والأستانة لخدمة طيش ومصالح ونزوات الحكام أولًا ، ووضعت كل موارد الدولة أو رهنت تلك الموارد لسنوات لاحقة ، لكي تتأمن الأسلحة الحديثة من الغرب وبأسعار باهظة ، ونتج عن ذلك خروج الجيشين العثماني والمصري مهزومين عام (١٨٤٠م) [١] .

فقد عرفت الدول الأوربية كيف تحرض السلطان على الباشا الذي يطمح للحلول مكانه في الأستانة ، ولا يقبل بأقل من مشاركته السلطنة فيها من موقع الند وليس التابع . وفي الوقت نفسه شجعت الدول الأوربية الباشا على التوسع باتجاه بلاد الشام ؛ لأنها المجال الحيوي الطبيعي لمصر ، وحضته على رفض أي صلح مع السلطان لا يعترف باستقلاله التام بمصر ، والسيطرة على بلاد الشام والسودان كمجال حيوي لها .

فانقلب الصراع ضد الدول الأوربية إلى نقيضه ، أي صراع بين السلطان والباشا ، فكانت هزيمتهما مؤشرًا على

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣٣٦) .

انهيار حركتي التحديث الشكلية في البلدين بعد أن أُنهكت القوى المنتجة بالضرائب الباهظة ، ودمرت قطاعات إنتاج بكاملها أو تعرضت للإفلاس بسبب المنافسة غير المتكافئة مع السلع الأجنبية ، وانتهت المسألة بالتحالف مع الدول الأوربية بشروطها المجحفة ، وبمزيد من التنازلات لرؤوس أموالها وقواها العسكرية التي بدأت تتمركز في شرقي المتوسط ، بطلب رسمي من حكامه ، وبفرض الاحتلال تدريجيًا على شعوب المنطقة بكاملها ، فانقلب التحديث إلى تغريب ، والصراع مع الغرب إلى ارتباط تبعي بالدول الأوربية ، والاقتباس أو التشبه بنماذجها الجاهزة على مختلف الصعد .

وقد أنفقت مصر في القرن التاسع عشر ، وبشكل خاص في عهدي محمد علي وإسماعيل مبالغ ضخمة على الجيش لتقوية قبضة النظام على زمام الأمور في البلد ، وتدشين حملات عسكرية غير مجدية على الجيران ، مما أرهق الموازنة المصرية وترك القليل من المال فقط للتنمية [1] .

قدسية الأرض ووطنية الحاكم

في اليابان رفعت (السنتوية) وهي الديانة الرسمية

---

(١) للتوسع انظر : محمد إبراهيم : المرجع السابق ، (ص ٢٦) . وإسماعيل ياغي : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، (ص ٢٢ - ٢٤) .

لليابانيين مرتبة الأرض اليابانية إلى درجة القداسة ؛ لأنها أرض الآلهة في زعمهم ، وأن إمبراطورها كان ولا يزال حتى اليوم يعتبر من سلالة الآلهة في اعتقادهم .

وبالتالي فإن من واجب كل ياباني الموت في سبيل أرضه وإمبراطوره الذي هو رمز اليابان ، فأرض اليابان حسب اعتقادهم مقدسة ولا يجوز أن تطأها أقدام الغزاة ، ولا يستقر عليها أجنبي إلا بإذن الإمبراطور [1] .

ويكفي القول بأن (الكوكوتاي) أي قدسية الأرض والإمبراطور شكلت حجر الزاوية في الفكر السياسي الياباني الحديث والمعاصر ، وكانت القاعدة الصلبة التي انطلقت منها إصلاحات مايجي لبناء إمبراطورية يابانية ذات نزعة عسكرية توسعية ، وهي من أكثر النزعات قسوة في تاريخ الإمبراطوريات العالمية [2] ، حيث غزت اليابان قسمًا كبيرًا من الصين ومنشوريا وكوريا [3] .

أما محمد علي حاكم مصر ، فكان ألباني الأصل ، لا يتكلم لغة البلاد التي هي اللغة العربية ، وكان انتهازي النزعة ، مخادعًا لا دين له ، شرهًا طماعًا ، اتخذ المصلحة

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٩٠) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٩١) .

(٣) جلال يحيى : الشرق الأقصى الحديث والمعاصر ، (ص ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨١) .

الشخصية غايته ، ولم يؤمن أبدًا بعقيدة تكون منطلقًا لأهدافه [١] .

ومع أن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، فإن الغالبية الساحقة من أبنائه وأحفاده لم يكونوا يتكلمون بها ، ولا يقيمون وزنًا لدين الإسلام وأحكامه وقيمه وثقافته في قصورهم ودواوين حكمهم وأنديتهم ومحافلهم . بل إن محمد علي باح بهذا الموقف للفرنسيين وهو يفاوضهم في مسألة احتلال الجزائر ، قائلًا لهم : « ثقوا أن قراري ... لا ينبع من عاطفة دينية ، فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي ... قد تقولون أن مواطني حمير وثيران ، وهذه حقيقة أعلمها » [٢] .

وبقي التباين كبيرًا جدًّا بين ثقافة الناس أو ثقافة العامة التي ما زالت عربية إسلامية في الغالب ، وثقافة النخبة الحاكمة في عهد محمد علي وخلفائه خريجي الجامعات والمعاهد الأجنبية الذين تلقنوا إلى النخاع ثقافة الغرب وأفكاره ، وأخذوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم بلغاته ، ويمارسون طقوسه وعاداته السيئة ؛ إذ كان عند الغرب ولا يزال قدر هائل من الفساد الروحي والفكري والخلقي

---

(١) للتوسع انظر : الجبرتي : المصدر السابق ، (٤/٢١٠) ، وزكريا بيومي : المرجع السابق (ص ١٥٩) .

(٢) زكريا سليمان بيومي : المرجع السابق : (ص ١٧٠) .

والتفكك الأسري ، فسارعوا إليه فاستوعبوه كله ، أما الأشياء النافعة عنده : التقدم التكنولوجي ، النواحي التنظيمية ، روح الجلد والصبر على العمل ، والروح العملية في الإدارة والتنفيذ ، فلم يتجهوا إلى هذه الأشياء النافعة إلا بجهد متقاعس متخاذل متعثر الخطوات ؛ إذ لا يملكون عقيدة يميزون بها بين النافع والضار ؛ النافع الذي يجب اقتباسه والضار الذي يجب طرحه وتركه .

إصلاح الاقتصاد

لقد استنبط الفكر التحديثي الياباني منذ وقت مبكر في بداية حركة التحديث أن الخوصصة هي السلاح الناجع لدفع القطاع العام إلى تحسين أدائه ، وإنتاج أفضل السلع التي لا تقل جودة عن السلع المنتجة في مؤسسات القطاع الخاص ؛ ولذلك سعت الحكومة اليابانية إلى بيع عدد من المشاريع الصناعية الكبرى والمزودة بأحدث التكنولوجيا إلى القطاع الخاص ، على أن يسدد ثمنها خلال فترة زمنية طويلة وفوائد بسيطة [١] .

ولتشجيع هذا المنحى طبقت هذه السياسة الاقتصادية بأشكال عدة منها : بيع مصانع الدولة إلى القطاع الخاص ، ومنها استقدام الآلات الغربية الحديثة باسم الدولة وتوزيعها

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ١٧٠) .

على المؤسسات الصناعية دون فائدة ، ومنها ضمان الدولة للقروض التي تبرمها الشركات الخاصة لشراء معدات تكنولوجية جديدة من الخارج ، ومنها تصفية كل مؤسسة صناعية حكومية تصاب بالخسارة خلال عامين متتالين ، مما دفع بالقطاع العام إلى تحسين أدائه الاقتصادي ، خشية أن تباع مؤسساته الصناعية المنتجة ويسرح جميع عمالها (١) .

وقد أدت هذه التجربة الناجحة خلال السنوات (١٨٧٩ - ١٨٩٧م) إلى ميلاد مئات الشركات الصغيرة التي تنتج أدوات كهربائية حديثة ، ومضخات ، وساعات ، وآلات تعمل على البخار ، بالإضافة إلى قطع الغيار الضرورية لتجديد الآلات الكبيرة (٢) .

وكانت التجربة ناجحة جدًّا ، مما شجع الحكومة على تسييل قسم من احتياط الذهب المجمد في خزانتها لسد العجز في الموازنة ، وتلافي القروض بفوائد فاحشة ، ولم تمض سنوات قليلة من عملية تحديث البنى التحتية للاقتصاد الياباني حتى برز إنتاجها الضخم عبر إشراك غالبية القوى المنتجة في العمل الصناعي ، وتسويق الإنتاج الزراعي والصناعي (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٩٩) (بتصرف) .
(٢) المرجع نفسه ، (ص ٣٠٠) (بتصرف) .
(٣) المرجع نفسه ، (ص ٣٠٠) .

وبرزت نتيجة لذلك تغيرات جذرية في قطاعات الإنتاج المعتمدة على التكنولوجيا الغربية المستوردة والمتطورة محليًا وأبرزها مصانع : القطن ، وقطاع الحرير ، والمنسوجات على أنواعها ، والثياب الجاهزة ، والأسمنت ، والورق ، والزجاج ، وأدوات التجميل ، والأدوات الكهربائية ، والأسمدة الكيماوية ، وصناعة السفن ، وخطوط الحديد ، وصناعة التعدين ، وتحديث آلات المناجم ، والأدوات الهندسية وغيرها [١] .

وبحلول عام (١٩٠١م) شكل إنتاج المصانع نحو (١٠٪) من الناتج القومي الصافي ، كما شكل الرأسمال المحلي الثابت أكثر من (١٠٪) من الناتج القومي الإجمالي ، وشملت الصادرات أكثر من (١٠٪) من الناتج القومي الإجمالي ، وجميع هذه المؤشرات تظهر نموًّا متواصلًا بالمقارنة مع العقد السابق [٢] .

وإزاء هذا التطور النوعي في القطاع الخاص والعام معًا ، بقيت الصناعات الثقيلة التي كانت تعتبر إستراتيجية في القرن التاسع عشر حكرًا على مصانع الدولة وأبرزها :

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٣٠٠) (بتصرف) .

(٢) مجموعة من الباحثين : نهضة اليابان ، انظر :

Nishikawa Shunsaku, Saito Osamo : التاريخ الاقتصادي لفترة الإعادة ، الفصل الخامس عشر ، (ص ٢٦٥) .

الأسلحة ، والفولاذ ، والذخائر ، والمعادن ، وخطوط السكك الحديدية ، ولم يسمح للقطاع الخاص إلا بمشاركة بسيطة في تلك القطاعات التي اعتبرت ذات صلة بأمن الدولة اليابانية وسلامة قواها العسكرية ، كذلك احتكرت الدولة خطوط المواصلات على أنواعها ، ومعها وسائل الاتصالات والبريد ، وطرق الإمدادات والنقل ، ونقاط المراقبة في جميع المحافظات (١) .

لكن بالمقابل وفرت الحكومة اليابانية عددًا من مشاريع البنى التحتية للإنماء الصناعي وباعتها بأسعار التكلفة ودون فوائد أحيانًا لتنمية وتطوير القطاع الخاص ، فنتج عن ذلك تعاون ممتاز ما بين القطاعين العام والخاص (٢) .

وعلى العموم ، اعتمدت اليابان إستراتيجية اقتصادية سليمة حينما قررت بالفعل أن تقوم بالتحديث في سبعينات القرن التاسع ، وينبغي هاهنا أن نميز بين ثلاثة أبعاد مترابطة ترابطًا وثيقًا : الاستخدام المقتصد لرأس المال ، والتوالد المحلي لأرصدة الاستثمار ، والاستغلال الأفضل لمزيج العناصر ، والتسلسل الصحيح للعمليات ، وما كاد العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن يصل إلى نهايته حتى كان معدل الاستثمار في اليابان أعلى من (١١٪) من الناتج

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣٠٠ ، ٣٠١) (بتصرف) .
(٢) شارل عيساوي : تأملات في التاريخ العربي ، (ص ١٩٦) .

القومي الإجمالي ، وارتفعت النسبة باطراد إلى ما يزيد على (٢٠٪) في العام (١٩٢٠م) وإلى (٤٠٪) العام (١٩٦٠م) [١] .

أما في مصر ، فكانت السمة الأكثر أهمية لإصلاحات محمد علي في الاقتصاد الزراعي تكمن في احتكار الدولة للأرض والإنتاج معًا : فالدولة هي المالك الأعلى لغالبية الأراضي ، وهي أكبر محتكر لغالبية الأراضي ، وهي أكبر محتكر لغالبية الإنتاج المعد للتصدير [٢] .

وكانت الدولة تختصر في الغالب بمحمد علي وأسرته ، وإلى جانبهم بضعة آلاف من بقايا المماليك ، والأتراك ، والأثرياء الوافدين إلى مصر من عرب وأجانب ، بيد أن الفلاح المصري بقي يعيش في فقر مدقع بسبب قسوة تدابير الاحتكار التي فرضتها الحكومة على العمل الزراعي ، وفي مجتمع غالبية سكانه من الفلاحين ، فإن الإصلاحات الزراعية للدولة الاحتكارية التي بناها محمد علي لم تبدل جذريًا في طبيعة العلاقات بين قوى الإنتاج لصالح الفلاحين ، بل جاءت في الغالب منها لصالح الدولة الاحتكارية [٣] .

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ١٩٢) وما بعدها .

(٢) للتوسع انظر : الجبرتي : المصدر السابق ، (٣/٣٧٤ – ٦١٥ ، ٦١٦ – ٦٢٠) .

(٣) إسماعيل ياغي : تاريخ العالم الإسلامي ، (ص ٢١) .

ويضعنا الجبرتي أمام صورة ساخرة مؤلمة لظلم محمد علي وعساكره : « يأتون بالزجل فيقولون له : ... عليك مال الطين (الأرض) فيقول : وأي شيء الطين ؟ فيقولون له : طين فلاحتك من مدة سنين لم تدفعه ... فيقول : لا أعرف ذلك ولا أعرف البلد ولا رأيتها ... فيقولون : ألست الشيراوي أو الميناوي ؟ (من أهل هذه القرى) فيقول : هذه نسبة قديمة سرت إلي من عمي أو خالي أو جدي ، فلا يقبل منه ، ويحبس ويضرب حتى يدفع ما ألزموه به »[1] .

فهل يقوم التحديث على غرار هذا الظلم ؟

فكان على الفلاح المصري مقابل هذه التصرفات السيئة أن يواجه تدابير الحكومة بمزيد من اللامبالاة والقدرية السلبية ما دامت نتائج الإصلاح قادت إلى دولة احتكارية غنية وفلاح جاهل فقير مظلوم ، وبدل أن توظف الإصلاحات الحديثة لتطوير البنى التقليدية القديمة ، باتت الإصلاحات نفسها موضع نفور من الفلاحين ؛ لأنها بنيت على الاستغلال والاحتكار والربا وابتزاز الضرائب التي أثقلت كاهل الفلاحين[2] ، فاتخذت الإصلاحات المزعومة شكل الصراع القديم – الجديد بين الحاكم القطري الظالم والفئات الاجتماعية المهمشة في الريف المصري ، بين القوى المنتجة

---

(١) الجبرتي : المصدر السابق ، (٢٤١/٣) .

(٢) المصدر نفسه ، (٩٣/٣ – ٣٦٩ – ٦١١ – ٦٢٠ ، ٦٢١) .

المحلية التقليدية والقوى الخارجية الأجنبية .

أما في ميدان الحرف ، فإن إدارة محمد علي قامت بتحديث إنتاج القطن والصوف والحرير والنسيج والسكر والورق والجلود وبعض المواد الكيماوية المصنعة في مصر . ووظفت الحكومة المصرية قرابة (١٢) مليون جنيه مصري في القطاع الصناعي حتى العام (١٨٣٨م) ، وكان يعمل في هذا القطاع ما بين ثلاثين ألف إلى أربعين ألف عامل في وقت كان عدد سكان مصر يقدر بحوالي (٣,٥) إلى (٤) ملايين نسمة [١] .

يضاف إلى هذا أن محمد علي قدم حماية ملحوظة للصناعات المصرية في مواجهة السلع الصناعية المستوردة من الخارج ، ليس غيرة على المنتوج الوطني ، وإنما لتزداد أرباحه ويتقي كلفة المنافسة مع المنتوجات الأجنبية ، فهو صاحب رأس المال ، وهو المستثمر في القطاع الصناعي باسم الدولة . نعم ، شيد الباشا المصانع ، لكنه احتكر الصناعة ، وكان يجمع كل ما يقوم به أصحاب المصانع الصغيرة ويدفع لهم الثمن كما يفرضه هو [٢] .

إذن فالإجراءات الحمائية عبر الجمارك للسلع المصرية

---

(١) انظر شارل عيساوي : التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب (١٨٠٠ - ١٩١٤) (ترجمة رؤوف عباس حامد) ، (ص ٣٦٢ ، ٣٦٣) .
(٢) انظر : شفيق غربال : محمد علي الكبير ، (ص ١٠٥) .

كانت تصب في مصلحته ، حيث كان يخاف من منافسة السلع الأوربية للمنتوجات المصرية التي يذهب جل أرباحها إلى خزينته الخاصة .

علاوة على أن الأموال التي وظفت في القطاع الصناعي كانت تجبى بطريقة تعسفية من الفئة الحرفية الفقيرة ، ولم تكن اليد العاملة الصناعية تضم أعدادًا كبيرة من الصناعيين المهرة ، وكانت الرواتب ضئيلة قياسًا إلى حجم العمل المضني ، وسوء الأوضاع الصحية والتغذية في المصانع ، أما أرباحها فقد كانت تذهب في الغالب إلى الجيش والسلطة الاحتكارية التي يتزعمها الباشا [١] .

ومع إجبار مصر على تطبيق اتفاقية (١٨٣٨م) التي تمنع محمد علي من الاحتكار وتبيح دخول السلع الأجنبية إلى السلطنة العثمانية وولاياتها ، وكانت مصر هي المعنية أساسًا بتلك الاتفاقية ، انهار نظام الحماية الصناعية والتجارية الذي بناه محمد علي في مصر وبلاد الشام ، وبات على الصناعات المصرية الضعيفة أن تواجه منافسة حادة وغير متكافئة مع السلع الأجنبية ، فشهد الباشا إفلاس جميع المصانع التي بناها في مصر ، وذلك قبل وفاته عام (١٨٤٨م) [٢] .

---

(١) انظر شارل عيساوي : التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ، (ص ٣٦٢ ، ٣٦٣) .

(٢) مسعود ضاهر ، المرجع السابق ، (ص ٢٩٨) .

لقد حطم محمد علي الروابط المهنية لأرباب الحرف والتجار ، وتعامل معهم كما تعامل مع المجندين لخدمة الجيش ؛ فتحطمت الصنائع والحرف ، واضمحلت طبقة التجار ، وخسر بذلك طبقة وسطى كان يمكن أن تقود إلى مجتمع صناعي مستقر ، واشتغل بتسخير المجتمع المصري وموارده لتحقيق طموحاته العسكرية ، فاستنزفها في مغامرات لم يكتب لها النجاح ، وقد أدى ذلك فيما بعد إلى تحول المجتمع المصري إلى حطام مجتمع متفكك لا يملك الحد الأدنى من وسائل التماسك والثبات للدفاع عن مقوماته الاقتصادية والثقافية ، فأضعف ذلك الحكومات المصرية المتوالية في وجه الدول الكبرى التي استفحل جشعها ، وكذا تدخلها في شؤون مصر الداخلية (١) .

فانهارت معها أولى محاولات تحديث الاقتصاد المصري في القرن التاسع عشر ، مرد ذلك إلى أن تجربة التحديث الاقتصادي ركزت على الجيش وإدارة الدولة الاحتكارية . ولم يتم الإعداد لقاعدة شعبية قادرة على حماية الإصلاحات وذات نفع أكيد من ترسيخها وتطويرها ، فعرفت الدول الأوربية نقط الضعف في تجربة التحديث المصرية ، وسارعت إلى ضربها مستخدمة وسائل عدة :

---

(١) عبد العزيز محمد القاسم : الإصلاح التشريعي في مصر ، مجلة البيان ، عدد (١٦٣) ، (ص ٢٥) .

الصراع العسكري بين السلطان العثماني ووالي مصر ، تحريض القطاع الزراعي على الدولة ، منافسة السلع الأجنبية للسلع المصنعة في مصر ، التشجيع على الاقتراض من الخارج بفوائد فاحشة ، النهب المنظم للموارد المصرية عبر الجاليات الأجنبية [١] .

وكانت الحصيلة أن تراكم لدى مصر في السبعينيات من القرن التاسع عشر دين خارجي مقداره (٥٠٠) مليون دولار ، كما أن معدل الاستثمار فيها بلغ عام (١٩١٣م) أقل من (١٠٪) بكثير ، بينما بلغت النسبة في اليابان كما رأينا سالفًا ما يزيد على (٢٠٪) في نفس العقد الثاني من القرن العشرين [٢] .

الإصلاحات الاجتماعية بين الأصالة والتقليد

لقد أدت الإصلاحات السياسية والاقتصادية في اليابان إلى انتعاش شرائح الطبقات الوسطى كثيرًا ، وتوسعت بفضل إصلاحات مايجي ، وكان لها الدور البارز في ولادة البورجوازية اليابانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبشكل خاص الشرائح المرتبطة بقطاعي الصناعة

---

(١) للتوسع انظر : قاسم نوال : تطور الصناعة المصرية منذ محمد علي حتى جمال عبد الناصر ، (ص ٢٩ - ٨٦) .

(٢) انظر : عيساوي : تأملات في التاريخ العربي ، (ص ١٩٢) وما بعدها .

والبنوك ، وساهمت الإصلاحات في تضخيم سكان المدن بأعداد كبيرة ، وولادة الطبقة العاملة اليابانية التي بات عددها يقدر بملايين عدة منذ أواخر القرن التاسع عشر [١] .

وفي حين تقلص عدد العاملين في القطاع الزراعي باستمرار لصالح عمال الصناعة والتجارة والخدمات والجيش ، برز تحسن ملحوظ في شروط العمل الزراعي ، وتحديث الآلات الزراعية ، وزيادة حجم الإنتاج الزراعي ، وبناء المصانع المعدة لحفظ وتسويق هذا الإنتاج ، واتساع نسبة المزارعين من أصحاب الملكية الخاصة وغيرها ، وقدمت إصلاحات مايجي بعض الحلول الجزئية لمشكلة المنبوذين الذين كان يقدر عددهم بحوالي ثلاثة أرباع المليون (٧٥٠,٠٠٠) نسمة في العام (١٨٧١م) . وكان معظم هؤلاء يعيشون في قرى ومراكز خاصة بهم تفتقر إلى كل شروط السكن الصحي ، والخدمات الاجتماعية وغيرها [٢] .

ولم تكن أي من الطبقات الاجتماعية الأخرى تحبذ الاختلاط بهم أو التزاوج معهم ، وكانت الشركات أحيانًا ترفض السماح لهم بالعمل لديها ، فقامت الحكومة بمحاولة إدماج قسم منهم بالقرى المجاورة لسكنهم ، ورفع قيد الحجر الاجتماعي عنهم بشكل تدريجي عبر تسميتهم : القرويون

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣٠٧ ، ٣٠٨) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ٣٠٨) .

الجدد ، لكن مشكلة المنبوذين مازالت وما تزال دون حل جذري إلى الآن [١] .

قلصت إصلاحات مايجي إلى الحد الأدنى الامتيازات الطبقية القديمة التي كانت سائدة في اليابان على قاعدة أنماط من الإنتاج كانت سائدة قبل الرأسمالية ، دون أن تؤدي إلى إزالة الوعي بالتمايز الطبقي لدى غالبية اليابانيين مع ذلك ساهمت في ولادة مجتمع عصري على أساس نمط الإنتاج الرأسمالي الجديد ، والذي تبلورت من خلاله سمات المجتمع الياباني الحديث والمعاصر ، حيث باتت الغلبة فيه للطبقة الوسطى بنسبة تزيد على (٩٠٪) في العقد الأخير من القرن العشرين [٢] .

وعبّر شارل عيساوي في كتابه : « تأملات في التاريخ العربي » تحت عنوان : « لماذا اليابان » ؟ عن الآثار الاجتماعية للإصلاحات بقوله : « أبدت اليابان درجة عالية من التماسك لا مثيل لها في العالم ، فالتجانس القومي واللغوي والديني في اليابان أكبر على الأرجح مما هو في أية دولة أخرى في العالم ، والتاريخ الياباني غني بأمثلة التضحية بالنفس والتفاني في أداء الواجب ، وهما الأمران اللذان يفترضهما هذا التماسك بدءًا بالمحاربين من طبقة الساموراي والكاميكاز إلى عمال تويوتا وسوني ، ويفسر التماسك أيضًا

(١ ، ٢) المرجع نفسه ، (ص ٣٠٨) .

الإحساس بالالتزام الذي تشعر به الشركات إزاء العاملين فيها ، وهو الذي ينتج عنه ما يسمى بنظام التشغيل مدى الحياة ، كما أنه يحقق الإجماع المطلوب على كل المستويات قبل اتخاذ القرار »[1] .

أما في مصر ، فكان التدين الشكلي سمة المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ، وشتان ما بين الإسلام الدين الحق الذي يتضمنه القرآن والسنة ، وبين مفهوم الإسلام الذي ورثه الناس في المدن والأرياف عن آبائهم ، وأفرزته التقاليد والأعراف الاجتماعية الموروثة .

فالطبقات الشعبية في المدن والفلاحين في الأرياف كان يغلب عليهم جميعًا الجهل والتقليد والفقر والأمية ، ويكفي التذكير بأن إحصاء العام (١٩٠٧م) في مصر أظهر أن (٩٣٪) من المصريين كانوا أميين[2] ، وكان للجهل بقيم الإسلام ومقاصده أثر في إعاقة تشكيل تيار يدعو إلى التغيير الحقيقي بناء على المواءمة بين الأصالة والمعاصرة .

ذلك أن التحديث الإيجابي والتقدم الحقيقي لا يمكن إحرازه إلا بالجمع بين الأصالة والمعاصرة ، أو بعبارة أخرى بين الثابت والمتغير ، ثابت يجب الحفاظ عليه ؛ ويتضمن اللغة والتاريخ وقيم التنشئة الاجتماعية ، ومتغير يفتح المجال

---

(١) انظر : عيساوي : تأملات في التاريخ العربي ، (ص ١٨٦ ، ١٨٧) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ١٨٨) .

للتفاعل مع علوم العصر ، مع خلق المناخ الملائم للابتكار والإبداع والتجديد .

على أن الإسلام يمتلك منظومة من القيم تحقق الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وهي شروط ضرورية لبناء مجتمع منظم ومتحضر وقوي يستطيع أن يواجه تحديات عصره مهما كانت قوية .

ولتحقيق ذلك لابد من التركيز على الجانب النفسي والتربوي في بناء العقل المسلم ، وذلك بتعميم التعليم ، ودمج العملية التعليمية والتربوية (السلوكية) في إطار واحد ، بإرساء وغرس قواعد البعد العام الاجتماعي في التكوين النفسي والتربوي للفرد المسلم ، وما يتبعها من مبادئ وقيم : كالعدل ، والشورى ، والمساواة ، والحرية ، والصدق ، والإخلاص ، والتضامن ، والتكافل ، والتضحية ، والصبر على العمل والإنتاج ، والتعود على التنظيم والتخطيط ، وتربية روح الانتماء للأمة ، والحرص على مصالحها وحقوقها ورعايتها ، وحماية مؤسساتها العامة ، والمحافظة على النظام العام ، وغير ذلك ... حيث تصبح هذه القيم عرفًا ملزمًا للجميع يهتز لها ضمير المجتمع في حال المساس بها .

ويعود الفشل في تحقيق هذه القيم في الأوساط الشعبية المصرية على المستوى النظري بله التطبيقي إلى فساد رسالة

العلماء الذين صار العلم عندهم وسيلة إلى التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والثروة عند الحكام .

وقد استغل محمد علي تنافس العلماء على حطام الدنيا ، ليفرق جمعهم ويقوض وحدتهم ، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ عبد اللّٰه الشرقاوي وبين بعض المشايخ الآخرين ، فانتهز محمد علي فرصة ذلك الخلاف ، فأصدر أمره إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة ، يقول الجبرتي : « أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه ... فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر ... » [(١)] .

أما الطبقة العليا الحاكمة التي كانت تتشكل من محمد علي وأتباعه وكبار قادة الجيش والباشوات وبقايا المماليك ، ومعها البرجوازية التي أخذت تتشكل من كبار التجار وأثرياء الجاليات الأوروبية والعربية المتمركزة في المدن ، فقد غلب عليها المنحى التغريبي ، بل أدت الدور الرئيس في إبراز نماذج التغريب في مصر بأجلى مظاهرها : القصور ، والأثاث ، واللباس ، والعطور ، والمأكل ، والمدارس ، والخدمات ، وحفلات الترفيه ، وجميعها على النمط الأوروبي الغربي ، وبات التخاطب باللغات الأوروبية ، وليس العربية أو العثمانية .

وقد بلغت هذه القوى عصرها الذهبي في عهد الخديوي إسماعيل ، وأعلنت تبنيها العلني لشعاره بجعل مصر قطعة

---

(١) الجبرتي : المصدر السابق ، (١٣٤/٣) .

من أوربا ، واستغلت الأزمات المالية المتلاحقة للنظام المصري لحكم قبضتها على الاقتصاد والمجتمع في مصر ، وتحولت إلى طابور خامس وحليف إستراتيجي للإنجليز قبيل وبعد احتلالهم لمصر .

التفاعل الثقافي مع الغرب بين الاقتباس والتطوير

لقد كانت القوى الثقافية اليابانية التي كانت على علاقة بالثقافة الغربية طوال مرحلة حكم أسرة توكوغاوا (قبل عصر مايجي) ضعيفة للغاية ، وأعجز من أن تشكل تيارًا ثقافيًا يدعو إلى التغريب [١] .

يضاف إلى هذا أن العزلة الطوعية التي دخل فيها اليابان ، والتي بدأت بتصفية دموية لآلاف اليابانيين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، وقتل معهم عدد كبير من المراسلين الأجانب ، لم تغلق جميع النوافذ أمام الثقافة الغربية ؛ إذ وضعت مخططًا تفصيليًا للاستفادة من بعض مقولات الثقافة الغربية ، واستيراد التكنولوجيا الحديثة ، واقتباس العلوم العصرية المفيدة لليابان من أي مكان وجدت فيه دون خوف أو مركب نقص [٢] .

---

(١) مسعود ضاهر ، المرجع السابق ، (ص ٣٠٩) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ٣٠٩) .

ففي العقد الأول لإصلاحات مايجي ترجم عدد كبير من الكتب الأوروبية والأمريكية والصينية لأغراض الدراسة الأكاديمية والبحث العلمي ، وتم استقدام أعداد متزايدة من الأساتذة والباحثين والخبراء والمستشارين الأجانب للعمل في مؤسسات التعليم الياباني ، كذلك تم تدريس بعض المواد الجامعية بلغات أجنبية دون أن يستمر هذا المنحى لفترة طويلة ، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر بدأ اليابانيون بالحلول تدريجيًا مكان الأجانب في مؤسسات التعليم ، وأصبحت اليابانية لغة التدريس الرسمية في اليابان في المؤسسات الرسمية والخاصة على السواء [1] .

وهاهنا يظهر جليًا أن عملية استيراد التكنولوجيا الغربية واستقدام آلاف الخبراء والمدرسين الأجانب معها ، كان الهدف منه تدريب اليابانيين ؛ إذ شكلت عملية الاستيراد هذه مجرد خطة انتقالية تلتها بعد ذلك مرحلة أرقى من الاستيعاب والتطوير المحلي ، وآمن اليابانيون بعمق أن عملية تحديث اليابان هي مسألة يابانية بالدرجة الأولى ، وتقع على كاهل اليابانيين دون سواهم ، فاعتمدوا على الخبراء الأجانب من جميع الجنسيات والمناهج التحديثية الغربية ،

---

(١) انظر : لوكوود : التنمية الاقتصادية في اليابان .

W. Lockwood : The Economic Development of Japan, p. 480.

(نقلا عن مسعود ضاهر : المرجع السابق ، ص ٣١٠) .

دون الارتباط التبعي لمنهج تحديثي غربي واحد [١] .

والهدف من ذلك تطوير القدرات الذاتية لدى اليابانيين حيث يصبح وجود هؤلاء الخبراء الأجانب مسألة انتقالية فحسب ، تنتهي بانتفاء الحاجة إليهم بعد أن يستوعب اليابانيون أسرار التكنولوجيا والعلوم الغربية ، ويعملوا على تطويرها انطلاقًا من الطاقات الإبداعية الذاتية ، إلى أن يصبح اليابان في مصاف الدول المنتجة للتكنولوجيا على الصعيد العالمي ، وليس مجرد مستهلك لها ؛ ولذلك رفض قادة الإصلاح سياسة إضعاف الركائز التقليدية للثقافة اليابانية التي كانت سائدة منذ قرون طويلة ، ونتيجة لجهود هائلة أصبح التدريس باليابانية لكل المواضيع في مراحل التعليم الإلزامي ، بما فيها الرياضيات والعلوم حقيقة واقعة ، وبدأ المدرسون اليابانيون يحلون محل الأجانب في الجامعات أيضًا [٢] .

لقد كان زعماء الإصلاح شديدي الحرص على تعليم الإنسان الياباني العلوم والتكنولوجيا العصرية ، لكنهم تشددوا في الحفاظ على أصالة الثقافة اليابانية ، ولم يظهروا

---

(١) مجموعة من الباحثين : النهضة اليابانية ، انظر : Nagai Michio : التربية في أوائل فترة المايجي (فترة المايجي بين التغريب والبيننة) . الفصل الثاني عشر ، ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، (ص ٢٢٦) .

رغبة في اقتباس الكثير من المقولات الثقافية التي كانت سائدة في الغرب ، وهذا ما أشار إليه برنراند راسل بقوله : « كانت اليابان دولة متخلفة اقتصاديًا ، إلا أنها لم تكن تشعر أبدًا أنها دولة متخلفة ثقافيًا » [١] .

إن القيادة اليابانية النظيفة والمتنورة في عهد مايجي جعلت الثقافة التقليدية ركائز وطنية صلبة لمواجهة ثقافة التغريب ، ولم تسمح لمقولات الثقافة الغربية باختراق النسيج المتماسك للمجتمع الياباني ، فاعتمد اليابانيون الكثير من المقولات الإصلاحية المقتبسة من الغرب إلا أنهم رفضوا اعتماد نموذج غربي واحد لتطبيقه في اليابان ، وفضلوا اقتباس ما هو مفيد ، وطرح ما يقود للتغريب أو لإرباك التماسك الاجتماعي الموروث [٢] .

نتيجة لذلك استطاعت اليابان الانتقال من مرحلة نقل التكنولوجيا والعلوم الغربية إلى مرحلة تطويرها والمشاركة في تصنيعها عالميًا ؛ فانتقل يابانيون من دائرة الاقتباس والتقليد إلى مرحلة الإبداع والتجديد .

أما في مصر ، فمع احتدام الصراع السياسي والعسكري بين والي مصر والسلطان العثماني ، اشتدت حدة الاقتباس الثقافي

---

(١) هربيرت باسين : المجتمع والتربية في اليابان .

Herbert Passin : Society and Education in Japan, p. 11.

(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣١٦) .

من الغرب ، وازداد معها الانخراط التبعي لمصر والسلطنة معًا في دائرة التغريب الثقافي طوال القرن التاسع عشر ، والذي انتهى بسقوط مصر تحت الاحتلال الأجنبي (١) .

والخلل يعود إلى تخلي خلفاء محمد علي بالكامل عن حماية الإنتاج المحلي ، واكتفوا فقط باستيراد السلع المصنعة الجاهزة التي أغرقت الأسواق المصرية ، وضربت الأسس البنيوية للاقتصاد المصري ، فقد اعتمد الخديوي سعيد سياسة التعاون اللامشروط مع الأوربيين خاصة الفرنسيين ، ودخلت الأفكار والسلع الأوربية في عهده على نطاق واسع ، وأرسل عددًا من البعثات العلمية مجددًا إلى أوربا ، لكنها رجعت خاوية الوفاض تحمل العادات والتقاليد الأوربية في نمط العيش والمحادثة (٢) .

وكان سعيد هذا قد تلقى تربية أوربية ، وكان شديد الإيمان بفتح أبواب مصر على مصارعها أمام حركة التغريب ، ومهد الطريق أمام الخديوي إسماعيل للقيام بحركة تغريب واسعة النطاق بالاستناد إلى الخبراء الأجانب والبعثات العلمية غير المجدية إلى أوربا ، وزيادة هائلة في

---

(١) إسماعيل ياغي : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، (ص ٢١ - ٢٩) .

(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣١١) (بتصرف) ، وياغي : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (ص ٢٣) .

حجم الجاليات الأوربية في المدن المصرية ، والاقتراض من المؤسسات الربوية الأوربية بفوائد فاحشة ، وفتح الباب على مصراعيه للمضاربين الأجانب في البورصة المصرية ، وحرمان السلع المحلية من أي حماية وقدرة على المنافسة [١] .

وإذا لم يكن للسلطة الحاكمة في مصر أي سند شعبي لها على المستوى الداخلي ، ولا قوة دولية تدعمها بعد هزيمة نابليون الثالث أمام الألمان عام (١٨٧٠م) [٢] ، عندئذ خلت الساحة للإنجليز في شرقي المتوسط ، فأسقطوا إسماعيل ، واحتلوا مصر .

مسألة المحاكم المختلطة

شكلت مسألة المحاكم المختلطة نموذجًا بالغ الدلالة على كيفية تعاطي السلطات المصرية واليابانية مع الضغوط الأجنبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

ومن نافلة القول أن الاعتراف للرعايا الأجانب بحق التقاضي أمام محاكم مختلطة تصدر أحكامها دومًا لصالحهم على حساب المواطنين المحليين يشكل انتقاصًا للسيادة الوطنية ويضر بسمعة الدولة .

---

(١) كريستيان هريس : الوطنية والثورة في مصر .

Christina Harris : Nationalism and Revolution in Egypt, p. 26.

(نقلا عن مسعود ضاهر : المرجع السابق ص٣١٢) .

(٢) فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، (ص ٢٨٦) وما بعدها .

وعندما حاول الغربيون تطبيق ذلك النموذج على اليابان في وقت كانت تجهد فيه حكومة مايجي للتخلص من الاتفاقيات المجحفة بحقها ، انفجر صراع حاد داخل الإدارة اليابانية دام سنوات عدة وانتهى برفض تلك المحاكم (١) .

ونخلص إلى القول بأن الشعب الياباني الذي كان دومًا يخاف خطر الأجانب ويدعو إلى طردهم من اليابان طوال مرحلة حكومة توكوغاوا ، لم يحبذ مشروع المحاكم المختلطة على الإطلاق ، ورأى في تبنيه انتقاصًا للسيادة اليابانية ، وأُجبر الوزراء الداعين إليها إلى الاستقالة (٢) .

أما في مصر ، فقد بدأت المحاكم المختلطة التي تمنح امتيازات خاصة للأجانب على حساب المواطنين تعمل في أواخر عهد محمد علي إلى أن برز نفوذها الهائل في عهد الخديوي إسماعيل إبان وزارة نوبار باشا (المسكين) الذي اعتبرها انتصارًا للدبلوماسية المصرية في منع احتلال مصر عن طريق التفاهم مع القوى الأجنبية بدل التصادم معها !! (٣) .

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣١٧) .

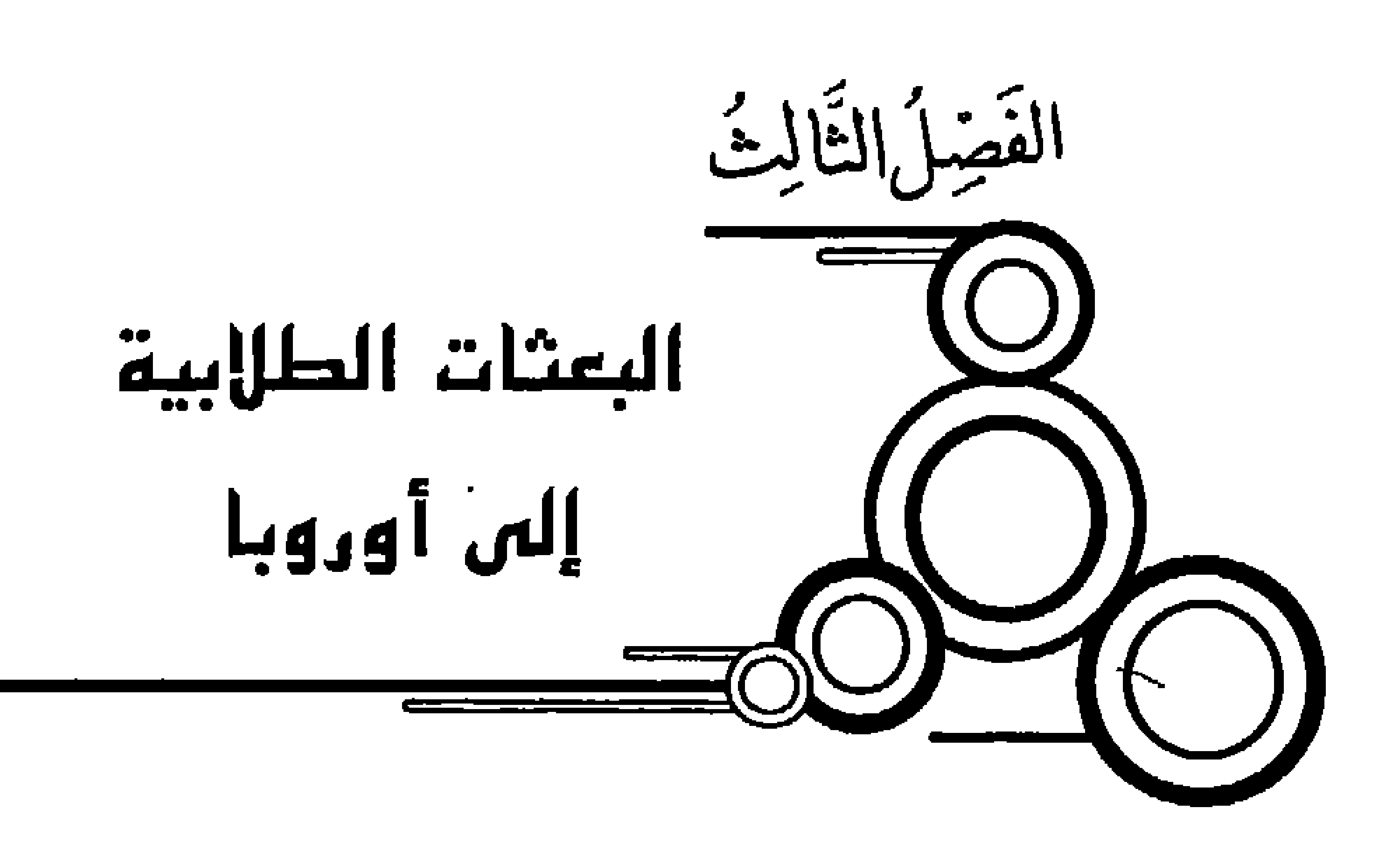
(٢) المرجع نفسه ، (ص ٣٢٠) .

(٣) المرجع نفسه ، (ص ٣١٧) (بتصرف) ، وحمد بن صادق الجمال : اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر ، (١/٥٤) .

لمعرفة التداعيات المترتبة على الإجراءات التي كانت تتخذها هذه المحاكم ، انظر : مقالنا السابق : انهيار الدولة العثمانية في ضوء السنن الاجتماعية (مجال القضاء والأمن) ، (ص ٩) .

وقد كانت هذه المحاكم أداة للهيمنة الأوروبية والاستغلال الأجنبي في مصر ؛ فهي محاكم أجنبية ، تعتمد في المحاكمة لغة أجنبية ، وتطبق قوانين أجنبية ، وتصدر أحكامها لصالح الأجانب ، ولم تأت بأي نفع لصالح المصريين : حكومة وإدارة وشعبًا .

* * *



النموذج المصري

من الأدوات التي مهدت لعملية التغريب : سياسة الابتعاث التي اتبعها محمد علي باشا في مصر بإرسال الطلاب الشبان إلى أوروبا ليتعلموا هناك ، وكان هذا أخطر ما فعله في الحقيقة ؛ لأنه من هناك بدأ الخط العلماني يدخل ساحة التعليم ، ومن ورائه ساحة الحياة الاجتماعية .

وتشير بعض الدراسات إلى أن عدد الطلاب الإجمالي الذين أرسلهم الباشا إلى أوروبا بلغ (٣٣٩) طالبًا ، منهم (٢٣٠) إلى فرنسا و (٩٥) إلى بريطانيا ، و (١٤) إلى دول أوروبية أخرى [١] .

---

(١) محمد فؤاد شكري : بناء دولة مصر : محمد علي ، (ص ٧٢٤ - ٧٢٨) .

وتأثر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوروبا أو بعد عودتهم منها ، لقد ذهبوا لينهلوا من العلوم التجريبية ويعودوا بأسباب القوة الحربية والاقتصادية وإذا هم عادوا يحملون معهم بذور التغريب والعلمانية .

ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين : أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ - ١٨٣١م) وهو رفاعة الطهطاوي ، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٦م) وهو خير الدين التونسي .

ومن الملاحظ أن ما كتبه رفاعة الطهطاوي في مصنفه « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » الذي كتبه أثناء إقامته في فرنسا وعرضه على أستاذه الفرنسي (جومار) المشرف على بعثة الطهطاوي ورفاقه ، قبل أن ينشره بعد عودته إلى مصر ، وما عرضه في كتابه « مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » ومؤلّفه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وكذلك ما كتبه خير الدين في مصنفه الوحيد : « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » ، كل ذلك يعد صدى لتفكير القرن الثامن عشر في أوروبا ، وفي فرنسا بالذات حيث طغى التفكير العقلاني على العلم والثقافة ، وهي آراء تظهر للمرة الأولى في المجتمع الإسلامي .

للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلامًا عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الضيق الحديث في أوروبا الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض ، وللمرة الأولى نجد اهتمامًا وافتخارًا بالتاريخ الجاهلي القديم (الفراعنة) يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد ، وللمرة الأولى نجد عند كل من الطهطاوي وخير الدين كلامًا عن الحرية المتفلتة من كل قيد ومن كل شرط على غرار ما عرفته أوروبا بإطلاق الحريات الشخصية في مجال التدين والأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية ، ولأول مرة نرى عرضًا للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم بها المصارف والشركات الربوية ، وللمرة الأولى نلاحظ الإعجاب بالقوانين العقلية والشرائع الوضعية في كتاب « تخليص الإبريز »[1] وبذلك مهد الطهطاوي من حيث يدري أو من حيث لا يدري لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل على قصوره وعلى مخالطة الأهواء والشهوات له ، والذي أدى فيما بعد إلى إلغاء الشريعة الإسلامية وإقصائها من واقع الحياة واستحلال ما حرم اللّٰه .

ودعا الطهطاوي في كتابه « تخليص الإبريز » إلى تحرير المرأة أي إلى السفور والتبرج والاختلاط ، ودافع على مراقصة الرجال للنساء وأزال عن الرقص المختلط وصمة

---

(١) محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، (ص ١٩ - ٢٣) .

الدنس والعار ، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى ، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم ! [١] .

يقول : إن الرقص عندهم فن من الفنون ، أو كأنه نوع من العياقة والشلبنة (كلمتان عاميتان مصريتان تعنيان الأناقة والفتوة) ... وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا سواء كان يعرفها أم لا .

وبالنسبة لقضية المرأة فقد ذهب إلى القول بأنه يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، وهون من اختلاط الرجال بالنساء في كتابه « تخليص الإبريز » [٢] .

لم يكن من المتوقع بطبيعة الحال أن تستجيب الأمة الإسلامية لمثل هذه الدعوات في حينها ، فقد كانت بقية الإسلام في نفوس المسلمين ، كما كانت سيطرة التقاليد الإسلامية على كل جوانب الحياة تبلغ من القوة إلى الحد الذي يجعل مثل تلك الدعوة في ذلك الوقت مثالًا للسخرية ومثارًا للاستنكار الشديد ؛ ولذلك استغرقت عملية الانتقال التدريجي نحو التغريب ما يقرب من قرن من الزمان أعطيت فيه الأمة جرعات مستمرة لا تتوقف ، بل تتوسع على الدوام

---

(١) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، (ص ٢٠٩) .

(٢) محمد محمد حسين : أزمة العصر ، (ص ١٢٠) (بتصرف) .

على نحو إحداث نقلة بعيدة في مجالات الحياة المختلفة .

قد يقول قائل : ألم يكن من سبيل للنهوض سوى نقل أسوأ ما عند الأوروبيين في حضارتهم وترك العلوم النافعة التي تقوي كيان الأمة وتبرز خصائصها التي تتميز بها عن غيرها ؟

فلو كان في مكان « محمد علي » قائد مسلم واع يريد أن ينهض بمصر على أسس إسلامية وقاعدة إسلامية فقد كان أمامه سبيل آخر هو النهوض بالأزهر – معقل العلم لا بمصر وحدها بل بالعالم الإسلامي كله – برده إلى الصورة الزاهية التي كانت عليها المعاهد الإسلامية في عصور النهضة ، حيث كان تعلم العلوم الشرعية والعلوم التجريبية جنبًا إلى جنب ، وكان يتخرج فيها الأطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفيزيائيون والكيميائيون المسلمون الذي علموا العلم لأوروبا قبيل عصر النهضة [١] .

وإذا كانت بلاده – أو بلاد العالم العربي الإسلامي جمعاء – تفتقر إلى المتخصصين في هذه العلوم الذين يحتاج إليهم الأزهر ؛ لينهض بمهمته ، فقد كان في وسعه يومئذ أن يرسل أفرادًا بأعيانهم ، يُختارون اختيارًا دقيقًا على أسس الذكاء والتقوى بعد أن يكونوا قد تجاوزوا سن المراهقة وأُحصنوا بالزواج حتى لا ينزلقوا في مزالق الفساد الخلقي ،

---

(١) محمد قطب : المرجع السابق ، (ص ٢٠٨) (بتصرف) .

فيتخصصون في مختلف العلوم ويعودون للتدريس والتعليم في بيئتهم الإسلامية ، وعندئذ تنهض مصر ، بل ينهض العالم الإسلامي كله من طريق الأزهر الذي يؤمه الدارسون من جميع بلاد العالم الإسلامي ، ويكون هذا القائد قد أدى خدمة جليلة للإسلام والمسلمين [١] .

ولكن بالعكس من هذا كله ، فقد ترتب على مشروع « محمد علي » التجديدي الشكلي ، والذي نفذه فكريًا الطهطاوي ، انكماش وتهميش لدور الأزهر التاريخي ، وذلك لصالح المدارس والبعثات التبشيرية الأوروبية التي شكلت العمود الفقري للبنيان الثقافي الجديد [٢] .

لقد صرعت الثقافة الغربية الطهطاوي عالمًا وعاملًا وأجبرته أن يدفع ثمن حضوره على مسرح التاريخ الحديث بانقطاع كامل عن دورة المجتمع الإسلامي الداخلية ، فلم يكن أزهريًا متنورًا يواجه التجربة الأوروبية من ثوابت الإسلام الفكرية والحضارية ، ومن قاعدة المكانة التاريخية للأزهر ، بقدر ما كان تعبيرًا أزهريًا هامشيًا لمشروع التحديث الشكلي الناشئ على أنقاض مؤسسة الأزهر التاريخية [٣] .

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٠٨) (بتصرف) .

(٢) مصطفى السيد : صورة الثورة الفرنسية في تطبيقاتها العربية ، البيان ، عدد (٢٢) ، (ص ٣٠) .

(٣) المرجع نفسه ، (ص ٣١) (بتصرف) .

ألم يكن من الأجدى الانطلاق من الذات للبحث عن مصادر القوة داخل بنيان المجتمع الإسلامي وداخل المخزون الفكري والفقهي الإسلامي ؟

إن سياسة التغريب الشاملة باسم التحديث والعصرنة فتحت البلاد على مصراعيها أمام القوى الخارجية ، وكرست الهيمنة البريطانية على مصر لعشرات السنين ، ودفع الشعب المصري فواتير التحديث وضرائب التغريب كاملة دون أن يجني ثمرة تذكر .

النموذج الياباني

أرسلت الدولة اليابانية في بدء نهضتها بعوثًا دراسية إلى ألمانيا كما بعثت مصر بعوثًا ، ورجعت بعوث اليابان لتحضر أمتها ، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض !! فما هو السر ؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة :

يقول الطالب الياباني « أوساهير » الذي بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا : « لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبت لأدرس في جامعة (هامبورج) لما وصلت إلى شيء ، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية ، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركًا صغيرًا ، كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى « موديل » هو أساس الصناعة كلها ، فإذا

عرفت كيف تصنعه وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها ، وبدلا من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل ، أو مركز تدريب عملي ، أخذوا يعطونني كتبا لأقرأها ، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها ، ولكنني ظللت أمام المحرك ، أيا كانت قوته وكأنني أقف أمام لغز لا يحل ، وفي ذات يوم ، قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع ، كان ذلك أول الشهر ، وكان معي راتبي ، وجدت في المعرض محركا بقوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله ، فأخرجت الراتب ودفعته ، وحملت المحرك ، وكان ثقيلا جدًّا ، وذهبت إلى حجرتي ، ووضعته على المنضدة ، وجعلت أنظر إليه ، كأنني أنظر إلى تاج من الجوهر ، وقلت لنفسي : هذا هو سر قوة أوروبا ، لو استطعت أن أصنع محركا كهذا لغيرت تاريخ اليابان ، وطاف بذهني خاطر يقول : إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى ، مغناطيس كحدوة الحصان ، وأسلاك ، وأذرع دافعة ، وعجلات ، وتروس وما إلى ذلك ، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك ، وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها ، ثم شغلته فاشتغل ، أكون قد خطوت خطوة نحو سر « موديل » الصناعة الأوروبية ، وبحثت في رفوف الكتب التي عندي ، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات ، وأخذت وقتا كثيرًا ، وأتيت بصندوق أدوات العمل ، ومضيت أعمل ،

رسمت المحرك ، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمل أجزاءه ، ثم جعلت أفككه ، قطعة قطعة ، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة ، وأعطيتها رقمًا ، وشيئًا فشيئًا فككته كله ، ثم أعدت تركيبه ، وشغلته فاشتغل ، كاد قلبي يقف من الفرح ، استغرقت العملية ثلاثة أيام ، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة ، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل .

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال : « حسنًا ما فعلت ، الآن لابد أن أختبرك ، سآتيك بمحرك متعطل ، وعليك أن تفككه ، وتكشف موضع الخطأ وتصححه ، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل » ، وكلفتني هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل ، فقد كانت ثلاث من قطع المحرك بالية متآكلة ، صنعت غيرها بيدي ، صنعتها بالمطرقة والمبرد .

بعد ذلك قال رئيس البعثة الذي كان يتولى قيادتي روحيًا ... قال : « عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك ، ثم تركبها محركًا ، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد ، وصهر النحاس ، والألمنيوم ، بدلا من أن أعد رسالة دكتوراة كما أراد مني أساتذتي الألمان ، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر المعادن ، كنت أطيع أوامره وكأنه سيد عظيم ،

حتى كنت أخدمه وقت الأكل ، مع أنني من أسرة ساموراي ، ولكنني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهون كل شيء ، قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات ، كنت أعمل خلالها مابين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم ، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة ، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة .

وعلم « الميكادو » (الحاكم الياباني) بأمري فأرسل لي من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب ، اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة ، وأدوات وآلات ، وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت ، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته ، وعندما وصلت إلى « نجازاكي » قيل لي : إن « الميكادو » يريد أن يراني ، قلت : لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملا ، استغرق ذلك تسع سنوات ، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صنع في اليابان) ، قطعة قطعة ، حملناها إلى القصر ، ودخل « الميكادو » وانحنينا نحييه وابتسم ، وقال : « هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي ، صوت محركات يابانية خالصة » .

هكذا ملكنا « الموديل » ، وهو سر قوة الغرب ، نقلناه إلى

اليابان ، نقلنا أوروبا إلى اليابان ، ونقلنا اليابان إلى الغرب [١] .

وهكذا انفتحت اليابان على الغرب محتفظة بكل مقوماتها الذاتية واعتزازها بروحها ولغتها ، فأخذت ما تحتاجه من تقنية دون أن تدفع ضريبة معنوية ، أما الانفتاح المصري في عهد محمد علي باشا فلم يبق دينًا ولم يأت بدنيا .

وبإجراء مقارنة أو مقابلة بين مصر واليابان اللتين كانتا متأخرتين على مستوى واحد أو متقارب في العصر الحديث ، ودخلتا في خضم السبق الحضاري في وقت متقارب ، نلاحظ أن اليابان مضت في الشوط حتى سبقت السابقين الذين تتلمذت عليهم من أهل الغرب ، وتعثرت مصر في خطواتها ، وتخاذلت وانتكست ، فلماذا ؟

لقد أحست اليابان بالحاجة إلى النهوض وهي محتفظة بهويتها وذاتيتها ، فأعطت من نفسها العزيمة المطلوبة ، وبذلت الجهد المطلوب ، وأحست مصر بالحاجة إلى النهوض وهي مسلوبة الشخصية ، فلا شخصيتها الإسلامية كانت حية تدفعها إلى العمل ، ولا اكتسبت - وهي في موضع التقليد - ذاتية مستقلة ؛ لأن التقليد يقتل الذاتية والاستقلالية ولا ينميها ، ومن ثم ظلت في مكانها ،

---

(١) محمد إسماعيل المقدم : علو الهمة ، (ص ٢٩٢ - ٢٩٥) .

أو تحركت خطوات متخاذلة متعثرة لا توصل إلى شيء ذي بال .

إن اليابان بدأ طريقه إلى التقدم ببناء الإنسان المتحضر والمجتمع المتحضر ، ودرس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاته ، وليس بالنسبة لشهواته وكمالياته ، فالفارق العظيم بين الصلة التي ربطها اليابان بالحضارة الغربية وبين صلتنا بها : أن اليابان وقف من الحضارة موقف التلميذ ، ووقف منها العرب موقف الزبون ! إنه استورد منها الأفكار بوجه عام ، ونحن استوردنا منها الأشياء بوجه خاص ، وشتان مابين التوجهين !! [1] .

* * *

---

(١) محمد بدري : الفاعلية طريق الحضارة ، (ص ٣٧ ، ٣٨) .

الفصل الرابع

خلفاء محمد علي ومأزق حركة التحديث (الخديو إسماعيل نموذجًا) (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)

تحويل حركة التحديث إلى تغريب المجتمع المصري

إسماعيل هو الابن الثاني لابراهيم باشا ، تولى الحكم بعد وفاة عمه سعيد في ١٨ يناير (١٨٦٣م) ، ولقبه الخديو مستعار من الفارسية ، ويعني السيد أو الأمير ، أضفاه عليه السلطان عبد العزيز العثماني (١) .

كتب عنه قاضي هولندي عاش في بلاطه في مذكراته ما يلي : « الخديو إسماعيل هو أول من مهد لسيطرة أوربا الاقتصادية على مصر ، فإن أوربا وبخاصة باريس ؟ التي عاش فيها أثناء دراسته - قد أفسدت على هذا الخديو دينه

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٧) .

وأخلاقه وماله ، وفتنته فتنة شاملة ؛ فلم يعد يعنى إلا بكل ما هو أوربي ، وبكل ما يراه الأوربيون ، واعتزم ومن يوم أن تولى عرش مصر أن يعيش كملك إفرنجي في قصوره وأثاثه ومأكله ومظهره وملبسه ، ومن المؤسف أن كل ما أنفقه في هذا السبيل لم يعد بالفائدة إلا على أوربا ، إذ كان يستورد من مصنوعاتها تلك الأشياء الهالكة العديمة التي لم تزد الثروة القومية جنيهًا واحدًا ، ولأجل أن يستوفي مطالبه الخارقة في هذا الصدد ، لم تكفه الأموال التي يجنيها من شعبه على فداحتها ، فأمده أصدقاؤه الأوربيون بالقروض الجسيمة ذات الشروط المخربة ، وقد دعا أفراد أسرته والباشوات وموظفي الحكومة إلى تقليد الأوربيين في ملبسهم ومسكنهم وطريقة معيشتهم ، فبادروا إلى تلبية دعوته ، وأخذ الكبراء يستوردون من أوربا الملابس والبسط والستائر وأنواع الأثاث والعربات ، وأدخل الخديو الحياة الإفرنجية في قصور نسائه ونساء آل بيته ، فتهافتت الأميرات وزوجات الباشوات والأغنياء على هذا الضرب الجديد من البذخ تهافتًا شديدًا ، وأسرف أولئك النسوة القليلات الحظ من العلم والعاطلات عن العمل في شراء الفساتين التي لا عداد لها ، وابتياع التحف الثمينة والمركبات الفخمة ، وكسون جميع جوارهن بكل ما أبدعته بيوت الأزياء

الباريسية من فاخر الملابس ، وسحرتهن بدعة (الموضة) وتغيراتها السريعة ، وانقرضت المنسوجات الشرقية ، والسجاجيد ، والأرائك ، وأدوات الزخرف القديمة ، التي كانت تمتاز بمتانة الصنعة والقدرة على البقاء . ولا تسل عما خسرته مصر من جراء ذلك ، فقد استولى الأوربيون على التجارة وعلى الحياة المالية » [١] .

وتتفق وجهات النظر العربية والغربية على القول إن إسماعيل بالغ في الاعتماد على الأجانب ، وفتح لهم أبواب مصر على مصاريعها ، فقد أخذ إسماعيل على عاتقه مهمة جعل مصر قطعة من أوربا ، لكن شكلًا لا مضمونًا [٢] .

فعلى سبيل المثال تم تشييد عدد من المدارس والمعاهد التي لم يكن الهدف منها تعليميًا ، ولكن أنشأها الخديو إسماعيل ليباهي بها ضيوفه زعماء أوروبا كالإمبراطورة أوجيني زوجة إمبراطور فرنسا نابليون الثالث ، وإمبراطور النمسا ، وشقيق ملك هولندا وزوجته ، عندما دعاهم لحضور حفل افتتاح قناة السويس عام (١٨٦٩م) [٣] .

---

(١) انظر : عبد الرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ، (٢/٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٢) لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر :

Christina Harris : Nationalism and Revolution in Egypt.

(٣) عبد الله خلف : من تاريخ التغريب : الإسماعيلية الجديدة ، البيان ،=

لقد تبنى خلفاء محمد علي وعلى رأسهم الخديو إسماعيل خيارات خطيرة جرت مصر إلى حركة تغريب واضحة ، نظرًا لكثافة الاقتباس السهل من النماذج الأوربية .

وقد ساهم في تسريع عملية التغريب هذه موقع مصر الجغرافي القريب من مراكز التحديث الغربية من جهة ، وسياسة كل من الخديو سعيد والخديو إسماعيل في فتح أبواب مصر على مصاريعها أمام الأجانب الأوربيين الذين كانوا وحدهم يملكون رأس المال والمهارة الضرورية لتطبيق التكنيك الغربي ، وكانوا يعرفون جيدًا أن مصر بحاجة ماسة لهم فاستعملوها إلى أقصى حد [1] .

وساعد في استغلال الأجانب لمصر أن الأسرة الخديوية الحاكمة باتت كبيرة العدد بما تضم من الأمراء والأميرات ، وصار أفراد هذه الأسرة وحاشيتها يشكلون طبقة متميزة عن المصريين ، يعيش معظم أفرادها في قصور وفيلات فخمة بنيت بأموال الشعب المصري ، واقتنوا أملاكًا واسعة ، وجمعوا ثروات ضخمة [2] .

ولم يبذل أفراد هذه الطبقة جهدًا يذكر للاندماج في

= عدد (٢٨) ، (ص ١٠) .

(١) انظر : دافيد لاندز : بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس ، (ص ٨٧) .

(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٣٠) .

المجتمع المصري ، ولم يتولد لديهم شعور الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام أو اللغة العربية أو إرث مصر الحضاري الإسلامي ، ونادرًا ما تعلم أفراد هذه الأسرة اللغة والآداب العربية ، أو تخاطبوا بها فيما بينهم ، فاستمرت اللغة العثمانية لغة التخاطب اليومي داخل قصور الحكام ، بالإضافة إلى العناية بدراسة اللغة الفرنسية بشكل خاص ؛ لأنهم فضلوها على العربية (١) .

كان رد الفعل الشعبي واضحًا ضد أفراد هذه الأسرة ، إذ اعتبرهم غرباء عنه ، ويميلون إلى الارتباط التبعي بأوربا وتقليدها في كل شيء ، وتأكد لدى المصريين هذا الشعور بغربة حكامهم عندما جاهر إسماعيل وتباهى بالعمل على جعل مصر قطعة من أوربا بعد اقتلاعها من جذورها الإفريقية (٢) .

وفي عهد إسماعيل بدأت شرائح جديدة تتبلور داخل المجتمع المصري وتتميز عنه بكثرة الاقتباس عن المجتمعات الأوربية في المجالات الشكلية ؛ مثل : اللباس والمأكل والمسكن ونمط التعليم .

وكان لانتشار التعليم الأوربي في مصر عبر مدارس

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٣١) .

(٢) انظر : عبد الله الخلف : المرجع السابق ، (ص ٩ - ١٢) .

أجنبية - خاصة - الأثر البارز في هذا المجال ، وانتشرت اللغات الأوربية ؛ لتصبح لغة الصالونات أو شرائح الارستقراطية المحلية ، فهجر أبناء هذه الطبقة عاداتهم وملابسهم الشرقية كالجبة والعمامة ، وارتدوا الطربوش والبدلات الإفرنجية (١) .

وانتشرت كذلك أفكار جديدة آتية من أوربا تدعو إلى السفور والتبرج واختلاط النساء بالرجال ومساواتهن بهم في كل شيء ، وأقيمت النوادي ذات النشاطات الاجتماعية والرياضية والثقافية على النمط الأوربي الخاص (٢) .

وبشكل عام سقطت مصر فريسة للأطماع الأوربية بعد فتح الباب على مصراعيه أمام النفوذ الأجنبي .

الفساد الإداري والمالي يعم أجهزة الدولة

نتيجة لفساد الطبقة الحاكمة فسد الجهاز الإدراي بكامله ، إذ اتخذ غالبية الموظفين من الوظيفة وسيلة للاستغلال والإثراء غير المشروع ، فانتشرت الرشوة على نطاف واسع ، وأهملت مصلحة البلاد العليا إهمالا تامًا ، وتم استنزاف الطبقات الشعبية والمنتجة بشكل غير إنساني ، خاصة طبقة الفلاحين التي كانت تشكل غالبية السكان ،

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٣٢) .

(٢) محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، (ص ٣٦) .

والتي كان أفرادها يضربون بالكرباج لإجبارهم على دفع الضرائب المضاعفة ، والتي كانت تجبى عدة مرات أحيانًا في العام الواحد [١] ، وقد ورث إسماعيل هذا الفساد الإداري من جده محمد علي باشا .

أما طبقة الأعيان ، فكانت شبه ميسورة ؛ لأنها شكلت حلقة الوصل ؛ إذ أوكلت إليها الطبقة المسيطرة مهمة جباية الضرائب من ناحية ، ومنع الطبقات الشعبية من تنظيم نفسها للدفاع عن مصالحها الحيوية من ناحية ثانية .

واستمر الأعيان على امتداد الأرياف المصرية يمارسون دورهم التقليدي كفئة استغلالية طفيلية تعيش على حساب الفلاحين ، لكنها لا تنجو في بعض الأحيان هي الأخرى من نقمة الطبقة الحاكمة حين تشتد حاجتها إلى المال لتغطية نفقات البذخ والترف [٢] .

« وفي شؤون الحكم حكم إسماعيل مصر حكمًا مطلقًا تولاه بنفسه ، وكان معجبًا بشخصية لويس الرابع عشر المستبدة فيما قبل عصر النهضة الأوربية ، ويتشبه بأسلوبه في الانفراد بالحكم ، والتحكم في كيفية إنفاق أموال الدولة » [٣] .

---

(١) للتوسع انظر : ياسر قارئ : فرعون باشا ، البيان ، عدد (١٠٢) ، (ص ٩٣ - ٩٥) .

(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٣١) .

(٣) صلاح هريدي : تاريخ أوروبا الحديث ، (ص ٣٠١) .

ولم يكن الوزراء في عهده سوى موظفين لنظارات الدولة ، ولم يكن لديهم القدرة على رفض أوامر الخديو التي لا تقبل الرد ، ولم يكن للوزراء مجلس خاص بهم ، بل الخديو يجمعهم في ديوانه أو مجلسه الخصوصي إلى جانب عدد من الباشوات المخلصين إليه [١] .

لم يميز الخديو بين ميزانية الدولة وممتلكاته الخاصة ، بل كان يعتبرهما ملكًا خاصًا له ، وكانت أموال الدولة رهن إشارته يتصرف بها كما يشاء دون حسيب أو رقيب ، وكثيرا ما كانت تغفل إيرادات مهمة ولا تذكر في أرقام الموازنة العامة ؛ لأنها تعتبر من أسرار الدولة التي لا يطلع عليها سوى ناظر المالية والخديو ، ولم يكن لمجلس الوزراء، أو المجلس الخصوصي ، ولا لمجلس شورى النواب ، ذات الصبغة الشكلية صلاحية الاطلاع على أرقام الموازنة الحقيقية ، ولا على طرق إنفاقها ، بل كانت إرادة الخديو هي القانون ، وكانت أوامره حتى الشفهية نافذة على الفور [٢] .

ورغم القوانين الواضحة ، فإن الضرائب لم تكن تجبى على أسس سليمة وموحدة بين الأهالي ، وتتم الجباية تبعًا

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٣٣) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٣٣) .

لأهواء موظفي الحكومة والمتنفذين واحتياجاتهم المستمرة إلى جمع المال ، ولم تكن هناك رقابة فعلية على كيفية توزيع الضرائب أو طرق جبايتها ، وغالبًا ما تدفع القوى المنتجة الضرائب مضاعفة بسبب فساد الجهاز المالي والإدارات وكثرة مستغلي النفوذ ، بدءًا بالخديو ووصولًا إلى العمدة ، فقوانين الضرائب نفسها يتم تفسيرها تبعًا لمصلحة الدولة ، وتجبى الضرائب مقدمًا أحيانًا وبنسبة أكثر بكثير من القيمة المطلوبة ، ولا تعطى إيصالات رسمية بالمبالغ المدفوعة . ويتسابق الجباة والمأمورون على جمع الضرائب دون أن يصل قسم كبير منها إلى خزانة الدولة (١) .

علاوة على ابتداع الحكومة أنواع جديدة من الضرائب بعد التورط في سياسة القروض من الخارج : كضريبة السدس ، وضريبة الإعانة ، وضريبة المقابلة ، وضريبة العربات ، وضريبة الصوف ، وضريبة الملح ، وضريبة الدلالة ، وضريبة اليوركو على الأشخاص ، وضرائب على الدجاج والدواب والمواشي ، وضرائب على الحرف والصناعات (٢) .

وفي الوقت نفسه ، كان معظم الأجانب يتحايلون على دفع الضرائب بسبب حماية القناصل لهم ، ويتعاطون

(١ ، ٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٣٤) .

التجارة بالربا ، فازدادت ثرواتهم بسرعة ، وتملكوا مساحات كبيرة من أراضي مصر على حساب إفقار شعبها (١) .

خلاصة عهد إسماعيل

وبصفة عامة ، تميز عهد إسماعيل بسمات عدة أبرزها : الإكثار من المشاريع العمرانية غير المنتجة ، اعتماد التشريع أو المحاكم المختلطة التي حمت تغلغل الأجانب في مصر والسيطرة على المرافق الحيوية في البلد ، اعتماد سياسة القروض الخارجية بفوائد فاحشة أضرت بالاقتصاد المصري وساهمت في تكبيل مصر حكومة وشعبًا ، بيع أسهم قناة السويس لبريطانيا التي ازداد نفوذها كثيرًا في مصر على حساب تقلص النفوذ الفرنسي فيها ، فرض الرقابة الأوروبية على الموازنة المالية والإدارة السياسية في مصر (٢) .

وقد استفادت الدول الأوروبية كثيرًا من تغريب حركة التحديث في كل من مصر ومركز السلطنة العثمانية ، فعملت على توجيه بعضها ضد البعض الآخر في صراع دموي مدمر أدى في النهاية إلى احتلال مصر من قبل الجيش البريطاني ، وتفكيك أوصال السلطنة العثمانية بعد

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٣٤) . ومقال الكاتب السابق ، (ص ٧ ، ٨) .

(٢) عبد الله الخلف : المرجع السابق ، (ص ١١) .

الحرب العالمية الأولى فيما اصطلح عليه باتفاقية سايكس بيكو .

* * *

الفَصلُ الخَامِسُ

نهضة يابانية شاملة الإصلاحات في عهد الإمبراطور مايجي (١٨٦٨ - ١٩١٢م)

الإصلاحات الاجتماعية

هناك ظاهرة إيجابية في اليابان قد تكون فريدة في العالم ، وهي ممارسة الطبقة العليا عملية تثقيف شامل يطول جميع أفراد الشعب الياباني دون تمييز بين الطبقات الاجتماعية ، يضاف إلى هذا استتباب الأمن وعدم تعدي أبناء الساموري (الطبقة العليا في اليابان) على أبناء الطبقات الدنيا ، مما ساهم في تطوير المدن اليابانية على قاعدة السلم الأهلي الدائم ، وتعلم اليابانيون أن يعيشوا إخوة أحرارًا جنبًا إلى جنب دون الالتفات إلى الانقسامات العرقية والدينية والاجتماعية [١] .

ونشرت حكومة الشوغون (Bukufu) [٢] تعاليم تحض

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ١٥٥) .

(٢) مخيم أو مركز الحكومة : انظر كتاب النهضة اليابانية .

على حب الوطن ، والتضامن الاجتماعي ، ونبذ التفرقة الطبقية والعرقية الدينية ، والعمل على تطوير اليابان على الصعد كافة بالطرق السلمية ، دون اللجوء إلى أي شكل من أشكال العنف .

واستمرت (الأسرة) أو العائلة القاعدة الأساسية لولادة وتطور القرية اليابانية وتنظيمها الاقتصادي والاجتماعي ، كما استمرت أيضا قاعدة التنظيم الاجتماعي للطبقات الأخرى كالساموري والتجار الحرفيين (١) .

ويمكن التأكيد على أن المدن اليابانية هي التي ساهمت في ولادة وتطور المجتمع الياباني الحديث والمعاصر ، حين تخلى الوافدون إليها من الساموريين والفلاحين عن كثير من عاداتهم وتقاليدهم الريفية المتميزة بنظام الوراثة والتراتب الاجتماعي ، لمصلحة تقاليد وعادات المدن وأبرزها : المساواة والإخاء ، وتجاوز الكثير من التقاليد الريفية الموروثة لمصلحة قيم المواطنة ، واحترام الآخر بمعزل عن انتمائه الاجتماعي (٢) .

ولقد أدت مجموعة من العوامل الإيجابية إلى ركوب قطار الإصلاحات من باب واسع وهي : تشكل الجهاز الإداري الناجح والمدرب أفضل تدريب ، النسبة المرتفعة

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .
(٢) إسماعيل ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، (ص ١٤١ - ١٤٣) .

للمتعلمين من اليابانيين ذكورًا وإناثًا ، ولادة وتطور المدن الكبيرة التي يزيد عدد سكان بعضها على المليون نسمة في مطلع القرن التاسع عشر ، تطور الزراعة والصناعة والحرف وطرق المواصلات البرية والنهرية والبحرية على نطاق واسع ، بروز الدعوة المبكرة لتجانس الشعب الياباني ، ضرورة تطبيق المساواة التامة وتكافؤ الفرص بين جميع اليابانيين ، رفض كل أشكال التعامل التبعي مع الأجانب [١] .

المواءمة بين الأصالة والمعاصرة

تحسن الإشارة إلى أن القوى الإصلاحية الجديدة في اليابان في القرن التاسع عشر فتحت باب التحديث على مصراعيه ، وذلك بدعم مباشر وتشجيع من الحكومة اليابانية بهدف توليد جيل كامل من الإصلاحيين اليابانيين المزودين بأفكار إصلاحية وعلوم عصرية ، والمؤمنين بضرورة نشر تلك المقولات الإصلاحية وتعميمها بشكل مدروس ومبرمج على جميع الطبقات الاجتماعية في اليابان .

فالغاية من الإصلاح ليست نقل العلوم والتكنولوجيا العصرية ووضعها في مجتمع تقليدي يرفضها ويخاف من نتائجها ، بل تدريب الناس على تقبل تلك العلوم ووضعها في خدمة الإنتاج ، وتطوير حياتهم المادية مع الاحتفاظ

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٣٠٧ - ٣٠٩) .

بمعتقداتهم الدينية وتقاليدهم الاجتماعية ، فتبنت جميع الشرائح ، بالإضافة إلى التجار والصناعيين والحرفيين والفلاحين الأفكار الإصلاحية على نطاق واسع ، بعد أن أدركت مدى الإفادة الاقتصادية الكبيرة التي تقدمها التكنولوجيا الحديثة عند توظيفها في جميع مجالات الإنتاج (١) .

وانطلقت حركة التحديث الشاملة بوتيرة سريعة نظرًا لكثافة السكان في المدن ، ووجود شبكة مهمة من النقل البري والنهري والبحري ، وصناعات حرفية متطورة ، وتكنولوجيا زراعية متقدمة ، وتراكم مالي لم يشهد استنزافًا إلى الخارج بسبب العزلة الداخلية ، وجهاز إداري شديد التنظيم ، وقادر على توظيف تلك الإيجابيات إلى الحد الأقصى (٢) .

وعلى العموم ، فإن مرحلة توكوغاوا (Tokogawa) (٣) قد مهدت الطريق لحركة تحديث سريعة وناجحة في اليابان ، فكل الطبقات الاجتماعية كانت على استعداد بأشكال مختلفة للانخراط في تلك الحركة على أمل تحسين أوضاعها الاقتصادية ، وإضفاء مزيد من العدالة والمساواة على العلاقات الإنسانية داخل المجتمع الياباني (٤) .

(١ ، ٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٤٩) .

(٣) أسرة حكمت اليابان لفترة طويلة .

(٤) المرجع نفسه ، (ص ٢٤٩ ، ٢٥٠) .

نتيجة لذلك توسع استخدام التكنولوجيا المستوردة والمطورة محليًا في جميع المناطق اليابانية ، ومن قبل جميع الطبقات الاجتماعية ، وبنسب متفاوتة في مختلف قطاعات الإنتاج ، فتطور الإنتاج الزراعي على نطاق واسع ، ولاقى الإنتاج الحرفي المتطور حماية خاصة من الدولة ، وتطور القطاع الصناعي بسرعة ملحوظة [١] .

تحديث البنى الاقتصادية

لقد أدركت الدولة اليابانية أن القوة الاقتصادية المحلية عاجزة عن بناء مصانع حديثة مجهزة بأحدث التكنولوجيا دون مساعدة مباشرة من الدولة ؛ لذلك بنت الكثير من المؤسسات الصناعية خلال فترة قصيرة من الزمن ، وما لبثت أن باعتها إلى مؤسسات .

خاصة لإدارتها وتطوير الإنتاج فيها ، ووضعت الرقابة الصارمة على التجارة الخارجية ، ومنع تصدير الذهب والفضة والمعادن الأخرى إلى الخارج إلا بإذن خاص من أجهزة الرقابة الحكومية [٢] .

وهكذا بدأ الاقتصاد الياباني يرتدي وجهًا عصريًا متطورًا في مرحلة الإمبراطور مايجي ، ولعل أبرز تجليات ذلك

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٥٠) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٥١) .

التحديث ظهرت في قطاعات : البنوك ، والنقد ، والصيرفة ، والنسيج ، وتحديث العمل في المناجم ، وخطوط الحديد ، والنقل النهري والبحري ، وإنشاء شبكة عصرية للبريد منذ عام (١٨٧٠م) ، وشبكة عصرية لخطوط المترو منذ عام (١٨٧٢م) [١] .

ولقد اتبعت حكومة مايجي مبدأ ثابتًا يقضي بدعم مشاريع البنى التحتية لتسهيل وتطوير حركة الإنتاج في القطاعين العام والخاص ؛ ولذلك بدأت عملها بوضع هيمنتها على المؤسسات الاقتصادية الكبيرة والمصانع المرتبطة بالإنتاج العسكري التي أسست في العقود الأخيرة من مرحلة توكوغاوا ، ثم عملت على تحديث تلك المؤسسات والمصانع وتزويدها بالتكنولوجيا الغربية العصرية [٢] .

وهكذا أدت الدولة الدور الرئيس في إرساء قواعد التحديث لعدد من المشاريع الاقتصادية الكبيرة في الصناعات الثقيلة وليس الخفيفة ، أي الصناعات التي يعجز القطاع الخاص عن بنائها بأمواله الذاتية ، وتحتاج إلى معدات غربية تدار بالتكنولوجيا الغربية .

---

(١) إسماعيل ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، (ص ١٤٢) .

(٢) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٥٢) .

الاستفادة من التقنية الغربية

لكن الحكومة اليابانية أدركت أن عملية التحديث بالتكنولوجيا الغربية يمكن أن تتحول إلى تبعية للغرب ما لم يمتلك اليابانيون أسرار تلك التكنولوجيا ويطوروها محليًا .

فبالإضافة إلى استقدام الخبراء الأجانب لتدريب اليابانيين على إدارة وتشغيل المصانع الجديدة المستوردة من الغرب ، أرسلت الحكومة اليابانية بعثات متلاحقة من الطلاب إلى الغرب لاكتساب تلك التكنولوجيا وتوظيفها للنهضة بالاقتصاد الياباني .

فأرسلت بعثات إلى بريطانيا للاطلاع على صناعة السفن والتجارة البحرية ، وبعثات إلى فرنسا للطلاع على إدارة الأعمال وتسويق الإنتاج ، وغيرها من البعثات إلى الدول المتطورة في تلك الفترة ، وكان لهذه البعثات رؤساء يصاحبون الطلبة لتوجيههم والشد من أزرهم ، ويتولون قيادتهم روحيًا [1] .

الحرص على ترقية الإنتاج

كان على المؤسسات الإنتاجية أن تتنافس فيما بينها لتقديم أفضل السلع الاستهلاكية والمعدة للتصدير الخارجي من

---

(١) إسماعيل ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، (ص ١٣٩ - ١٤٣) .
ومحمد إسماعيل المقدم : علو الهمة ، (ص ٢٩٢ - ٢٩٤) .

ناحية ، وأن تتعاون إلى الحد الأقصى فيما بينها تحت إشراف مباشر من الدولة لجعل اليابان في مصاف الدول الاقتصادية المتطورة على المستوى العالمي من ناحية ثانية ، كذلك كان على الجامعات اليابانية الرسمية والخاصة أن تتعاون فيما بينها لتقديم أفضل الظروف الملائمة لتوليد أجيال متعاقبة من الشباب الياباني المزود بأحدث العلوم العصرية (١) .

وساهم في التحديث أن جمع اليابانيون بين تقاليد العمل الموروثة لديهم ، والتي تساهم في تراكم الإنتاج إلى الحدود القصوى ، واستخدام أرقى التكنولوجيا الغربية المستوردة مباشرة من مصادرها .

نتيجة لذلك تم تطوير القوى المنتجة بشكل هادئ ومبرمج ، وزادت نسبة الإنتاج بشكل قياسي ظهرت معها الاحتكارات اليابانية الضخمة القادرة على الاكتفاء الذاتي على المستوى الداخلي ، وعلى المنافسة بشروط ممتازة على المستوى العالمي ، ومع حلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر باتت اليابان تصنف في عداد الدول العصرية القوية المتطورة في جميع المجالات ؛ دولة مركزية صارمة ، جيش عصري قوي ومزود بأحدث الأسلحة ، اقتصاد مبرمج على قاعدة شركات احتكارية ذات طاقات مالية هائلة ومصانع

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٥٥) .

مزودة بأحدث العلوم والتكنولوجيا العصرية ، تطوير الحياة وفق أساليب عصرية مع الاحتفاظ بالتقاليد اليابانية بسلطة اتخاذ القرارات الحاسمة ، ومقولات تحديثية تضع مصلحة اليابان فوق أي مصالح أخرى وأبرزها : « تكنولوجيا غربية وروح يابانية » (١) .

تعميم الثقافة لمصلحة جميع اليابانيين

شدد قادة الإصلاح في عهد الإمبراطور مايجي على الدعوة إلى المساواة التامة بين اليابانيين في الحقوق والواجبات دون النظر إلى الموروث الذي يحمله كل ياباني عند الولادة (٢) .

وبالفعل وصل عدد كبير من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة إلى أعلى المراكز الإدارية والمالية والعسكرية ، بسبب كفاءاتهم الشخصية فقط ، كما أن إصلاحات جذرية قد أدخلت على نظام التعليم في تلك المرحلة ، وأفسحت المجال لجميع اليابانيين الذين في سن الدراسة لدخول المدارس (٣) .

ففي عام (١٨٧٢م) طبق نظام اللباس الموحد في

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٥٧) .
(٢) إسماعيل ياغي : تاريخ الشرق الأقصى الحديث ، (ص ١٤٣) .
(٣) المرجع نفسه ، (ص ١٤٣) .

المدارس على جميع التلاميذ اليابانيين ، وفي عام (١٨٩٠م) أدخلت تعديلات مهمة على نظام التعليم الياباني بهدف تحويله إلى نظام عصري بالكامل ، وعلى جميع مستويات الدراسة ، وفتحت تباعًا خمس جامعات ، أولها الجامعة الإمبراطورية في طوكيو التي أسست عام (١٨٧٧م) ، وأوكل إليها منذئذ إلى الآن مهمة تخريج أفضل الكوادر العلمية والإدارية للدولة اليابانية ، وللشركات الخاصة اليابانية [١] .

ثم أنشئت تباعًا جامعات (كيوتو ، وتوهوكو ، وسانداي ، وفوكوواكا ، وكيوشي ، وسابور ، وهوكايدو) ، وقد أدت هذه الجامعات الدور الرئيس في نشر فكرة المساواة بين اليابانيين ، يشعر فيها كل ياباني بأنه فرد كامل العضوية في جماعة بشرية تحترم كفاءاته الشخصية ، ويبادلها الاحترام بالحفاظ على القيم والتقاليد اليابانية [٢] ، التي جعلت اليابان نموذجًا يحتذى به في الحفاظ على الأصالة ، إلى جانب الدخول في التحديث أداة ووسيلة لتطوير أساليب الحياة التي تحقق الرفاهية والازدهار للشعب الياباني .

وقد استغرق الوصول إلى هذه النتيجة جهودًا مضنية وتكاليف باهظة على مدى أربعين عامًا متواصلة من

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٥٩) .
(٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٥٩) .

(١٨٧٠م) إلى (١٩١٠م) ، لم يحقق خلالها أي بلد أسيوي تقدمًا مشابهًا ، بل بات التعلم في اليابان يضاهي التطور الذي بلغته أرقى الدول في الغرب ، وبات التعليم التقني والمهني يحقق أفضل النجاحات على المستوى العالمي [١] .

وقد أدت إجبارية التعليم الذي أصبح إلزاميًا لجميع البنات والأولاد ما بين سن السادسة والحادية عشرة إلى ارتفاع نسبة الطلاب والطالبات بشكل بارز كما يؤكد الجدول التالي [٢] :

عدد الطلاب في المدارس الابتدائية	٦.٣٥٥٢٦١
عدد الطلاب في المدارس المتوسطة	٢١٩٢٠٣
عدد الطلاب في المدارس الثانوية	٦٦٣٠٠
عدد الطلاب في الجامعات	٧٢٣٩

حماية المجتمع الياباني من التغريب

تخوف المحافظون في اليابان من حجم الإصلاحات الكبيرة التي طالت جميع الميادين ، ورأوا في تطبيقها ما يقود إلى نقص المناعة الشعبية في مواجهة التقاليد والعادات

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٦٠) .

(٢) Mason : A History of Japan, p. 30.

(نقلا عن مسعود ضاهر : المرجع السابق ، ص ٢٦٠) .

الغربية التي تهدد المجتمع الياباني في تماسكه وتضرب بناه الداخلية .

وتساءل أحد رموزهم وهو (تاغوتشي) عما إذا كان بمقدور بلد صغير كاليابان أن يصمد في مواجهة الحضارة الغربية التي تعم القارات الخمس ؟ وفي حال فقدت اليابان أصالتها وتقاليدها تحت ستار الانفتاح على التقاليد الغربية ، فماذا يبقى من الاستقلال ؟! [١] .

نتيجة لذلك انتشرت على نطاق واسع وعلى الصعيدين الرسمي والشعبي معًا ، الدعوة إلى حماية اليابان من مخاطر التغريب ، وتوصل المصلحون اليابانيون إلى صياغة مقولة بالغة الأهمية على ضرورة الفصل بين التحديث والتغريب .

فاليابانيون يحبذون انخراط بلدهم في عملية التحديث المستمرة دون حدود ، إلا أنهم يصرون على إبقاء مظاهر التغريب فيها ضمن الحدود الدنيا ، ومنع كل التيارات أو المنظمات التي تدعو إلى تغريب المجتمع الياباني ومحاصرتها بشدة من جانب كل القوى الحريصة على

---

(١) للتوسع انظر : كوزبا ماسكي : الفكر الياباني في عصر مايجي ، طوكيو ، (١٩٥٨م) . Cosoba Masski : Japanese Thought in the Meji

وانظر : ك ، بايل : الجيل الجديد في يابان مايجي : مشاكل الهوية الثقافية ، ستانفورد ، (١٩٦٩م) .

K. Pyle : The New Generation in Meji Japan : Problems of Cultural Identity, 1885-1895.

استقلال اليابان والحفاظ على أصالتها (١) .

وهكذا رفع المصلحون اليابانيون شعارات إصلاحية واضحة ضمن ثلاثة محاور أساسية ؛ أولها : بناء جيش عصري مدرب أفضل التدريب ومزود بأحدث الأسلحة على أسس وطنية جديدة ، ثانيها : إحداث تحولات جذرية في القوى المنتجة بهدف بناء نظام اقتصادي على قاعدة نمط إنتاج رأسمالي صناعي متطور كما في الغرب ، ثالثها : الحفاظ على أصالة الشخصية والقومية اليابانية ذات الخصوصية المتميزة منذ أقدم العصور (٢) .

لقد أدرك اليابانيون أن الدول الغربية سبقتهم في مجال العلوم العصرية والتكنولوجيا ، فاقتبسوا منهم العلوم الطبيعية بدون تردد ، واستقدموا مئات الخبراء الغربيين لتدريب الكوادر اليابانية الشابة (٣) ودفعوا للخبير الأجنبي راتبًا مرتفعًا كان يفوق أحيانًا راتب الوزير الياباني ، كذلك أكثروا من البعثات العلمية إلى الخارج بهدف تدريب اليابانيين على العلوم العصرية من مصادرها وبلغاتها الأصلية ، وفي مواطن إنتاجها بالذات دون خوف أو مركب نقص (٤) .

---

(١) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٦١) .
(٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٧٦) .
(٣) إسماعيل ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، (ص ١٣٩ - ١٤٣) .
(٤) مسعود ضاهر : المرجع السابق ، (ص ٢٧٦ ، ٢٧٧) .

كان القادة اليابانيون على اقتناع تام بأسبقية الغرب على اليابان في مختلف مجالات التحديث ؛ فكان من الطبيعي التركيز في المرحلة الانتقالية على استيعاب العلوم والتكنولوجيا الغربية ، لحماية النظم والتقاليد اليابانية التي اعتبروها قيمًا ثابتة لا يجوز لليابان أن يتخلى عنها لأي سبب من الأسباب ؛ لأنها تعبر بصدق عن روح اليابان وأصالتها ، وقد تم التعبير عن هذا المنحى بشعار : تكنيك غربي وروح يابانية [١] .

وفي الوقت نفسه ، اتخذوا جميع التدابير الوقائية لمنع تأثر اليابانيين جماعيًا بأفكار التغريب ، وبالقيم الاجتماعية الغربية .

أدرك قادة الإصلاح بعمق أن الإصلاحات بجميع أنواعها يجب أن توظف في خدمة تلك الأصالة التي تشكل شخصية اليابان المتميزة ، وقد لاقى هذا التوجه ترحيبًا حارًا من جميع القوى الفاعلة في اليابان ، حيث استقطب شعار « اليابان أولًا » كل من الإمبراطور ، والساموراي على اختلاف مراتبهم ، والبورجوازية اليابانية الصاعدة ، والتجار ، والصناعيون ، والحرفيون ، والعمال ، والمزارعون ، ولم يلق معارضة تذكر من أي من القوى اليابانية الفاعلة [٢] .

---

(١) المرجع نفسه ، (ص ٢٧٧) .

(٢) المرجع نفسه ، (ص ٢٧٨) . ومجموعة من الباحثين : نهضة =

على أن هناك عدة عوامل متداخلة جعلت التحديث ممكنًا في اليابان ، منها :

١ - الظروف الجغرافية .

٢ - الاستقلال الوطني وعدم التعرض للاستعمار .

٣ - مجتمع مستقر نتيجة تجانس عرقي وانعزال وطني .

٤ - مجتمع إقطاعي متطور جدًّا .

٥ - سلام طويل امتد (٢٥٠) عامًا .

٦ - إجبارية انتشار التعليم .

٧ - وحدة وطنية متطورة جدًّا .

٨ - غياب الفكر الفلسفي .

٩ - القدرة على التكيف .

١٠ - الإلغاء الشامل لنظام الطبقات الاجتماعية التقليدية .

١١ - حصول التحديث بمبادرة داخلية بالكامل [١] .

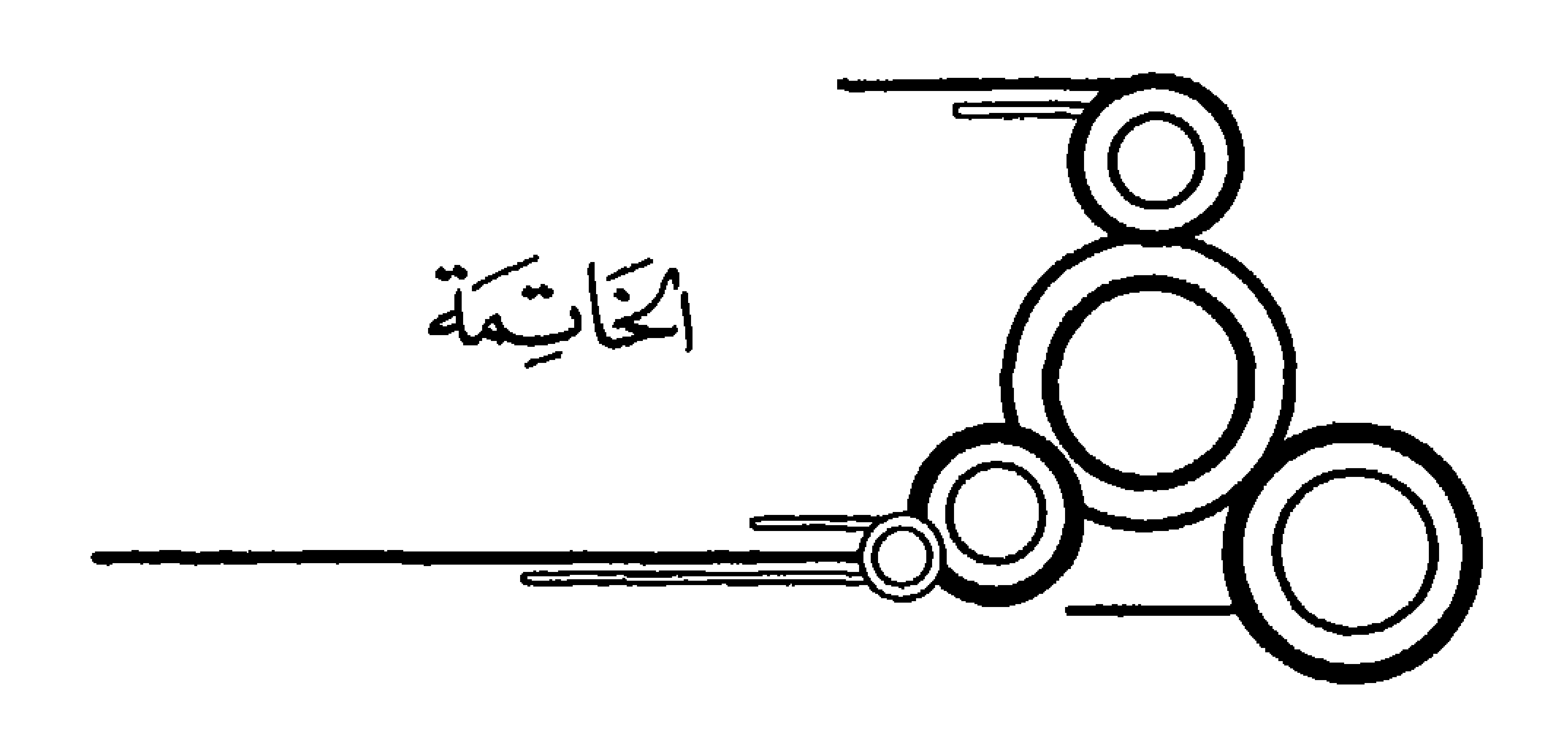
وخلاصة القول : عبر هذا التصور الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، يمكن وصف الإصلاح أو التحديث في

= اليابان ، انظر : Frank. B. Gibney : المايجي : ثورة ثقافية ، الفصل التاسع ، (ص ١٦٦) .

(١) نهضة اليابان : Kuwabara Takeo : ثورة المايجي وتحديث اليابان ، الفصل الثاني ، (ص ٥٤) .

اليابان بأنه تغيير جماعي تتعاون فيه كل القوى الفاعلة على إحداث تبدلات جذرية ومستمرة ، تنقل المجتمع القديم من دائرة الخوف من كل ما هو جديد إلى دائرة المشاركة في التحديث الذي يحمي الأصالة ، ويطور جميع ركائز المجتمع المادية منها والاجتماعية والروحية بشكل متوازن ، يطول كل الفئات الاجتماعية والمناطق وقوى الإنتاج .

* * *



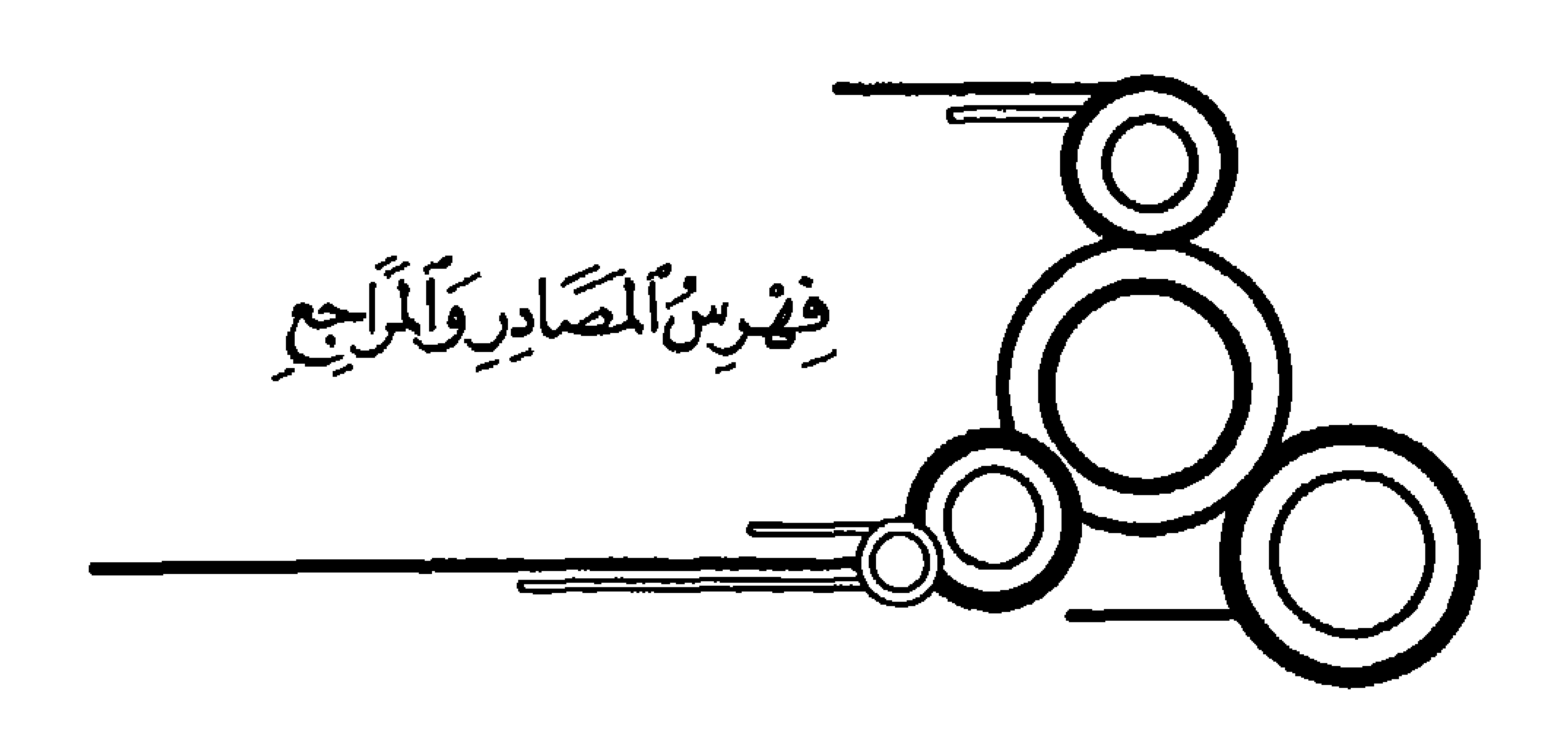
شتان ما بين التحديث والحداثة ! !

في حين رفض محمد علي الشورى والحقوق الأساسية للأفراد ، ورفض تثقيف الجيش بمقولات الأصالة وبناء الذات ، والسيادة والاستقلال ، وفتح خلفاؤه من بعده أبواب مصر للحداثة وتقليد الأوربيين في المظاهر ، واقتباس أنماط حياتهم المنحرفة من معاقرة الخمر وتعاطي الزنى وتشجيع التبرج والاختلاط والرقص ، والتفلت من القيم والأخلاق ، والسير بعيدًا عن التحديث الذي يعني في جوهره الأخذ بكل الوسائل التقنية والإدارية التي يتطلبها العصر ، والتي لا تكون الأمة بغيرها أمة قوية في اقتصادها وسلاحها وإعلامها ، والانفتاح على العلوم العصرية واستيعابها وتوطينها محليًا ، ثم تطويرها ، لبناء المعرفة ومن ثم القوة في جميع ميادين الحياة ، نجد أن الحكومة اليابانية

في عهد مايجي تبنت دعوات الإصلاح التي نادى بها المفكرون اليابانيون وعملوا على نشرها في الأوساط الشعبية انطلاقا من نظرة موضوعية تؤكد على ضرورة الانفتاح المدروس على ثقافات الآخرين وعلومهم ، والحفاظ على استقلالية مصادر المعرفة لدى اليابانيين ، أما اقتباس التكنولوجيا المتقدمة في نظرهم فيجب أن يكون مقرونا بالعمل على توطينها ثم تطويرها في إطار مشروع تحديثي طويل الأمد ترعاه الدولة وتعي أبعاده الأمة عن طريق تفعيل كل الطاقات الحية والفاعلة فيه .

على أن تباين النتائج بنجاح التجربة اليابانية وفشل التجربة المصرية يعزى إلى أن محاولات الإصلاح في مصر باءت بالفشل بعد أن تحولت إلى حركة تغريب وحداثة وليس حركة تحديث متأصلة الجذور في الدولة والمجتمع معًا ، بينما حركة التحديث في اليابان ليست تحديثًا للعسكر وبالعسكر ومن أجل العسكر لحماية مكاسب الحاكم وحاشيته ، بل تحديثًا للمجتمع كله ، عبر جميع فئاته وفعالياته وقواه الحية ، وأنظمته السياسية والمالية والإدارية عبر استقلالية التشريعات والقوانين والنظم اليابانية التي تدعو بوضوح إلى الاحتفاظ بالهوية الذاتية والأصالة .

* * *



بيومي ، زكريا سليمان :

١ - قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، جدة : عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، (١٤١١هـ/١٩٩١م) .

الجبرتي ، عبد الرحمن :

٢ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت : دار الجيل ، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) .

الجمال ، حمد بن صادق :

٣ - اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر ، الرياض : دار عالم الكتب ، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م) .

حجار ، جوزيف :

٤ - أوربا ومصير الشرق العربي ، ترجمة بطرس حلاق وماجد نعمة ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

(١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) .

حسين ، محمد محمد :

٥ - الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٥ ، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

٦ - أزمة العصر ، الرياض ، دار عكاظ للطباعة .

الرافعي ، عبد الرحمن :

٧ - عصر إسماعيل ، ط ٣ ، القاهرة ، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .

شفيق ، منير :

٨ - تجربة محمد علي الكبير ، بيروت : دارالفلاح .

شكري ، محمد فؤاد :

٩ - بناء دولة مصر (محمد علي) ، القاهرة : دار الفكر العربي ، (١٣٦٨هـ/١٩٤٨م) .

الشناوي ، عبد العزيز :

١٠ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة : مكتبة الأنجلو مصرية ، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .

شونساكو ، نيشاكوا ، وآخرون :

١١ - نهضة اليابان : ثورة المايجي إيشين ، تحرير ناغاي ميتشيو وميغال أورروتشيا ، ترجمة : نديم عبده وفواز

خوري ، بيروت : (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) .

ظاهر ، مسعود :

١٢ – النهضة العربية والنهضة اليابانية ، تشابه المقدمات واختلاف النتائج ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، شعبان (١٤٢٠هـ) / كانون الأول ديسمبر (١٩٩٩م) .

عيساوي ، شارل :

١٣ – التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب (١٨٠٠ – ١٩١٤م) ، ترجمة رؤوف عباس حامد ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، (١٤١١هـ/١٩٩٠م) .

١٤ – تأملات في التاريخ العربي ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، (١٤١١هـ/١٩٩١م) .

فيشر ، ه . أ . ل :

١٥ – تاريخ أوربا في العصر الحديث ، القاهرة : دار المعارف .

قاسم ، نوال :

١٦ – تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد علي حتى جمال عبد الناصر ، القاهرة : (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) .

قطب ، محمد :

١٧ – واقعنا المعاصر ، جدة : مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .

لانذر ، دافيد :

١٨ - بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس ، القاهرة ، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) .

المقدم ، محمد إسماعيل :

١٩ - علو الهمة ، الرياض : مكتبة الكوثر ، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م) .

هريدي ، صلاح أحمد :

٢٠ - تاريخ أوربا الحديث ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر .

ياغي ، إسماعيل أحمد :

٢١ - تاريخ شرق آسيا الحديث ، الرياض : مكتبة العبيكان ، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

٢٢ - تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، الرياض : دار المريخ ، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) .

يحيى ، جلال :

٢٣ - الشرق الأقصى الحديث والمعاصر ، القاهرة : دار المعارف ، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) .

الدوريات

إبراهيم ، محمد :

١ - عسكرة الدولة : محمد علي باشا نموذجًا ، مجلة

السنة ، بيرمنجام/ بريطانيا ، عدد (٩٥) ، صفر (١٤٢١هـ) / أيار (مايو) (٢٠٠٠م) .

أمحزون ، محمد :

٢ - انهيار الدولة العثمانية في ضوء السنن الاجتماعية ، مجلة المنار الجديدة ، القاهرة ، عدد (١٤) ، محرم (١٤٢٢هـ) / نيسان (أبريل) (٢٠٠١م) .

بدري ، محمد :

٣ - الفاعلية طريق الحضارة ، مجلة البيان ، لندن ، عدد (٩٩) ، ذو القعدة (١٤١٦هـ) /أذار (مارس) (١٩٩٦م) .

الخلف ، عبد اللّٰه :

٤ - من تاريخ التغريب : الإسماعيلية الجديدة ، مجلة البيان ، عدد (٢٨) ، شوال (١٤١٠هـ) / أيار (مايو) (١٩٩٠م) .

السيد ، مصطفى :

٥ - صورة الثورة الفرنسية ، تطبيقاتها العربية ، مجلة البيان ، عدد (٢٢) ، ربيع الأول (١٤١٠هـ) / تشرين الأول (أكتوبر) (١٩٨٩م) .

قارئ ، ياسر :

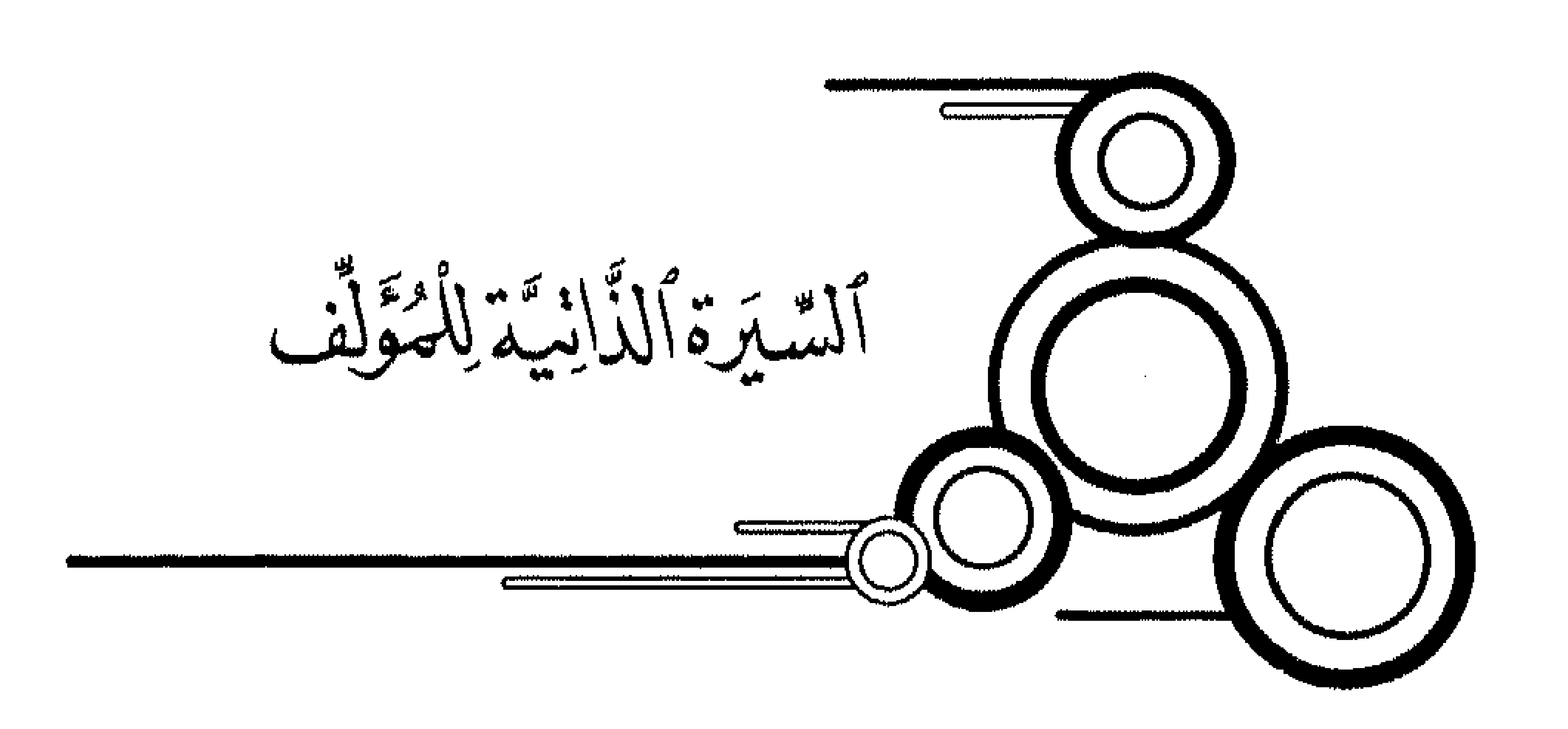
٦ - فرعون باشا ، مجلة البيان ، عدد (١٠٢) ، صفر

(١٤١٧هـ) / حيزران (يونيه) (١٩٩٦م) .

القاسم ، عبد العزيز بن محمد :

٧ - الإصلاح التشريعي في مصر من التأصيل المتعثر إلى الجموح العلماني ثم عودة التأصيل : نماذج النجاح والإخفاق ، مجلة البيان ، عدد (١٦٣) ، ربيع الأول (١٤٢٢هـ) / حزيران (يونيه) (٢٠٠١م) .

* * *



السيرة الذاتية للمؤلف





- أ. د. محمد أمحزون .
- حصل على الماجستير من جامعة الملك سعود - الرياض (١٩٨٤م) .
- حصل على الدكتوراه من جامعة محمد الأول - وجدة (١٩٨٩م) .
- شارك في ندوات علمية في مختلف الدول العربية .
- أشرف على عديد من الرسائل الجامعية .
- شغل منصب رئيس وحدة التكوين والبحث لنيل الدكتوراه .
- **ومن مؤلفاته :**

* تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين .

* منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة .

* تاريخ العلاقات الشيوعية الصهيونية .

– وله أبحاث موثقة منشورة ، منها :

* أهمية العلم بالسنن الاجتماعية .

* البعد الإستراتيجي للخطة النبوية في مواجهة الروم والتمهيد لفتح بلاد الشام .

* * *

رقم الإيداع
٢٠٠٨/١٤٧٩٥
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-660-2

(من أجل تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . .   السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « النهضة بين الحداثة والتحديث : قراءة في تاريخ اليابان ومصر الحديث » ورغبةً منا في تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

* فهيّا مارس دورك في توجيه دقة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-

الاسم كاملًا : .... الوظيفة : ....

المؤهل الدراسي : .... السن : .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب:..........

هاتف : [ ] / [ ] e-mail :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة   ☐ ترشيح من صديق   ☐ مقرر   ☐ إعلان   ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي   ☐ جيد   ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي   ☐ جيد   ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- هل صادفت أخطاء طباعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء مطبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

....

....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

Dar-Alsalam Designs

الكتاب في سطور

النهضة الحقيقية لأي أمة من الأمم تكمن في الأخذ بكل الوسائل التقنية والإدارية التي يتطلبها العصر ، بانفتاح على العلوم العصرية وتوطينها محلياً ثم تطويرها لبناء قوتها ونهضتها في شتى ميادين الحياة ، وهذا ما نجحت الحكومة اليابانية في تحقيقه في عهد « مايجي » ، فنادت بدعوات الإصلاح انطلاقاً من نظرة موضوعية منفتحة على ثقافات الآخرين وعلومهم مع الحفاظ على استقلالية مصادر المعرفة لدى اليابانيين ، في حين باءت محاولات مصر في العهد العثماني بالفشل لما تحولت محاولات الإصلاح إلى حركات تغريب وحداثة بعيداً عن الاحتفاظ بالأصالة والهوية الذاتية .

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

